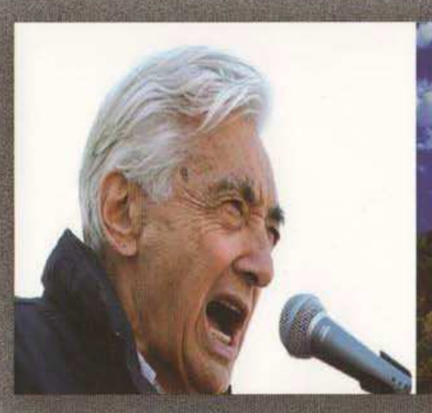
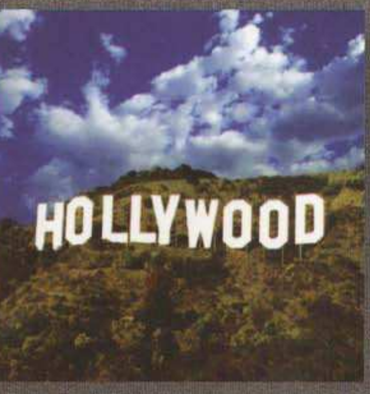
هـوارد زِنْ

قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً

Stories Hollywood Never Tells





إعداد وترجمة وتحقيق:

د. حمد العيسى

تقديم: **بول كوخرن**

With a Foreword by: Paul Cochrane

هـوارد زِنْ

قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً

Stories Hollywood Never Tells

إعداد وترجمة وتحقيق:

د. حمد العيسى

تقديم:

بول كوخرن

Foreword By: Paul Cochrane

منتدى المعارف

alMaaref Forum

الفهرسة أثناء النشر - إعداد منتدى المعارف

زِنْ، هوارد

قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً/ هوارد زِنْ؛ إعداد وترجمة وتحقيق حمد العيسى؛ تقديم بول كوخرن.

١٩٢ ص.

ISBN 978-614-428-020-1

١. زِنْ، هوارد - نصوص ومقالات. أ. العيسى، حمد (معد ومترجم ومحقق). ب. كوخرن، بول (مقدم). ج. العنوان.

028

Artists in Times of War

Authorised Translation From the English Language Edition

Originally Published by Seven Stories Press, New York, U.S.A., 2003

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٣

منتدى المعارف

بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت

ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ - لبنان

بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

إهـداء المتـرجـم

أهدي هذا العمل إلى روح:

الفنان العظيم الشيخ إمام عيسى (رحمه الله)



إهداء خاص من المترجم

كما أهدي هذا العمل أيضاً إلى:

روح والدي الغالي الشيخ عبد العزيز بن حمد العيسى، وروح أمي الغالية الحاجة سارة بنت محمد العيسى، وروح شقيقي النبيل محمد بن عبد العزيز العيسى رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته. وإلى أبنائي وبناتي: ياسر، عبد العزيز، نورة، لين، دانة، هيا، سارة، عمر، هاجر، وخالد (حفظهم الله).

شكـر وتقديـر

بعد شكر الله سبحانه وتعالى الذي لطف بي وكتب لي الحياة بعد إصابتي بجلطة في المخ عام ٢٠٠٨ وما تلاها من شلل نصفي واكتئاب عنيف، أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من دعمني عملياً أو معنوياً ولو بكلمة لطيفة عابرة ساعدتني وشجعتني على تجاوز تلك المحنة ومواصلة الكتابة والترجمة وأخص بالذكر: معالي الشيخ خالد بن عبد الرحمن العيسى نائب رئيس الديوان الملكي السعودي، عمي الغالي معالي الشيخ محمد بن حمد عبد العزيز العيسى، خالي الكريم معالي الشيخ محمد بن إبراهيم العيسى، ابن خالي الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم العيسى، وابن عمي سعادة الدكتور عبد الله بن محمد الحمد العيسى، معالي المهندس الصديق خالد بن عبد العزيز دخيل الفالح رئيس أرامكو السعودية وكبير الإداريين التنفيذيين، معالي الأستاذ الأخ عبد الله صالح جمعة رئيس أرامكو السعودية السابق، معالي المهندس الصديق عبد اللطيف بن أحمد عبد الله العثمان محافظ الهيئة العامة للاستثمار في السعودية، سعادة المهندس نظمي النصر نائب رئيس أرامكو، الناقد الكبير د. عبد الله الغذامي، الناقدة المرموقة د. لمياء باعشن، الكاتب المرموق د. إبراهيم بن عبد الرحمن التركي العمرو، الكاتب والمفكر المصري الكبير الأستاذ صلاح عيسى،

الناقد المغربي اللامع منتصر حمادة، الصديق الوفي الأستاذ المثقف محمد بن عبد العزيز العمر، الصديق الكاتب الصحافي المغربي الكبير الأستاذ رشيد نيني رئيس تحرير صحيفة المساء المغربية سابقاً، ابنة عمتي الأستاذة فاتن بنت محمد الصالح، أخي وصديقي الأستاذ صالح بن عبد العزيز إبراهيم العيسى (أبو نايف)، وابن عمي المهندس عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد العزيز العيسى، وأخي وصديقي الأستاذ الوجيه انتصار بن جمال تركي وعائلته، الصديق الوفي المهندس العبقري يعقوب بن يوسف النجيدي، الصديق الوفي المهندس عبد الحميد بن عبد الله الهطلاني، الصديق الوفي الأستاذ مشعل بن محمد الشريف، الأصدقاء الأوفياء صالح/ سليمان/ محمد أبناء المرحوم الشيخ عبد الله الوابل، الصديق الوفي العميد مهندس عبد العزيز بن عبد الرحمن التويجري، الصديق الكاتب المهندس عثمان الخويطر، الصديقة الوفية د. صافيناز الحاج الطاهر المستشارة في البنك الدولي (واشنطن، دي سي)، الطبيب النفسي د. ياسين القدال، أختي الكاتبة المبدعة الأستاذة هالة بنت عبد الله القحطاني وزوجها الصديق الأستاذ فيصل الجهني، الصديق المهندس علي بن سعد السرحان، والد زوجتي السيد بوشعيب عبد الله رقيب وحرمه السيدة ميلوده عمر عويد، وغيرهم.

د. حمد العيسى

المحتويـات

تنويهات ١٣

نبذة عن المترجم ١٥

حمد العيسى. . . مُتَرجِماً ١٧

تقديم بول كوخَرَن : كراس مهم في الوقت المناسب ٢٣

كلمة المترجم : مسؤولية المبدعين ٢٩

هوارد زِنْ : سيرة موجزة ٤٠

الفصل الأول : المبدعون في أوقات الحرب ٤٧

الفصل الثاني : عن إيمّا غولدمان ٧٧

الفصل الثالث : قصص لا ترويها هوليوود مطلقا ١٠١

الفصل الرابع : النشرات في أمريكـا ١٢٩

الفصل الخامس : «واجب التعبير»
أو دور المبدع في تغيير المجتمع ١٤٥

الفصل السادس : كلمات زِنْ الأخيرة
«تغيير عقلية أوباما» ١٦٣

الفصل السابع : حوار مع هوارد زِنْ :
«تقهقر الإمبراطورية الأمريكية» ١٧٧

تنويهـات

١. الكتاب الأصلي يتكون من الفصول **الأربعة** الأولى، أما باقي الفصول فليست ضمن الكتاب الأصلي، بل من اختيار وإعداد وترجمة حمد العيسى، وأضيفت لهذا الكتاب لأنها تتعلق بالمؤلف وتتسق مع هدف الكتاب. ونلفت النظر إلى أن **الفصل السابع** سبق نشره في كتاب سابق للمُترجم حمد العيسى يحمل عنوان **النصوص المحرمة**، ونعيد نشره هنا لأنه ينسجم مع رسالة هذا الكتاب.

٢. جميع الهوامش هي للمترجم.

٣. جميع الكلمات الموضوعة بين معقفين، كذا []، هي للمترجم.

٤. اختار المؤلف هوارد زن عنوان الفصل الأول ليكون عنواناً للكتاب الأصلي وهو **المبدعون في أوقات الحرب**، ولكننا اخترنا عنوان الفصل الثالث ليصبح عنوان الترجمة العربية للكتاب وهو **قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً** وكلا العنوانين ينسجم مع فكرة ورسالة الكتاب.

د. حمد العيسى

نبذة عن المترجم

- حمد العيسى، كاتب ومترجم عربي مقيم في المغرب. ولد في مدينة الدمام المطلة على الخليج العربي.
- بكالوريوس هندسة مدنية.
- ماجستير ودكتوراه في «الترجمة العامة» إنكليزي/عربي.
- مهندس تخطيط في أرامكو من عام ١٩٨٤ حتى عام ٢٠٠٤، حيث تقاعد مبكراً وتفرّغ للكتابة والترجمة.

■ صدرت له الكتب التالية:

(١) **وارث الريح**، مسرحية مترجمة، جيروم لورنس وروبرت لي، (عام ٢٠٠٥).

(٢) **أسبوع رديء آخر**، قصص قصيرة (عام ٢٠٠٦).

(٣) **النصوص المحرمة**، نصوص مترجمة، مالكوم إكس وآخرون (عام ٢٠٠٧).

(٤) **عقل غير هادئ**، سيرة ذاتية مترجمة لكاي ردفيلد جاميسون (عام ٢٠٠٨).

(٥) **قضايا أدبية: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية**، دانيال مندليسون وآخرون (عام ٢٠١١).

(٦) ضد النساء: **نهاية الرجال وقضايا جندرية أخرى**، حنا رسين وآخرون (عام ٢٠١٢).

■ كتب قيد الإعداد:

- **حياتي في أرامكو**: سيرة مهنية.
- **صفحات من تاريخ أرامكو**: بحوث ومقالات.

حمد العيسى... مُتَرجِماً

«أقرب مجاز لذهني هو أن أقول إنه كان اسماً مائياً، من تلك الأسماء التي تلفت نظرك من دون أن تكون لك أية خلفية عن صاحبها، اسم/علامة بلا مرجعية ذهنية، ولكنه اسم يلاحقك ويلحق بك كل أسبوع، في حالتي اللافتة معه، هو حمد العيسى، وما كان ليكون لي مع الاسم وقفة لولا مقالات ينشرها في «الجزيرة الثقافية»، وفيها الذكاء والذوق في الاختيار، وهي تقوم على تصيُّد ماهر لمواد ثقافية يلتقطها بعين كعين الصقر ويتصيدها من فضاءاتها ويترجمها بدقة وحنكة، حيث يجمع بين طراوة المادة ونجاعة النقل في لغة هي تعريب وليست مجرد ترجمة. هنا بدأت تتشكل الصورة ولكن يظل الاسم مائياً يسبح ويتموّج، ولكنه لا يكشف عن هويته، وما كنت أريد أن أعرف من هو ولا ما هو، وكان ممتعاً لي أن يظل مائياً وتظل مقالاته تختال أمام ناظري كل أسبوع حتى لا تتركني أتشاغل عنها. ولكن الاسم أخذ يتحول عن مائيته ليتكتل في صورة تتوثق مع كل مرة أشير بها إلى صحبي أن يتوقفوا عند مقالات حمد العيسى، وما لبثت أن وقعت يدي على كتب له مترجمة وحينها تحول الاسم إلى هوية وإلى صور ذهنية صارت تصنع بنيتها كتاباً إثر كتاب، وعرفت الكثير عن حمد العيسى، وجاءت صورة المثقف الحيوي الذي يُعمِل وقته في لعبة ثقافية عمادها الذوق ودقة

الاختيار؛ وكما قال أبو تمام، **فاختيار المرء جزء من عقله.** ولا شك أن حمد العيسى قد عرض عن نفسه عقلاً دلّت عليه مختاراته وبها شكل ذائقة لنفسه ثم لنصه ثم لقارئه، ولن يتخلى عن اسمه المائي وهو ما يتموج به في ذاكرة كل من يقرأ له».

د. عبد الله الغذامي

«كل عمل جديد من مقالة أو كتاب يخرج علينا به حمد العيسى يثير فيَّ إعجاباً بمقدار الطاقة الهائلة الكامنة في هذا المبدع التنويري المتخصص أصلاً في الهندسة وليس الأدب؛ فلا بد أن دهشة اكتشاف مادة جديرة بالقراءة تمر به تدفعه دفعاً إلى محاولة إيصال ما أدهشه إلى الآخرين. وجدت في متابعتي لما أصدره أديبنا الشاب إحساساً عميقاً بالمسؤولية الاجتماعية تخرج في شكل ترجمات مدهشة كتعبير داخلي عن رغبة ملحّة في تغيير أنماط تفكيرنا وإخراجنا من قوقعة المحلية إلى الفضاء الإنساني الواسع. حمد العيسى ليس مترجم كلمات من لغة إلى لغة أخرى فحسب، بل ما ينقله لنا من الإنكليزية إلى العربية يخلو من أي عجمة نلمحها في ترجمات كثيرة. ذلك لأن الترجمة عند هذا الأديب المجتهد، إبداع فني احترافي راقٍ، يوحي أن الموضوع المترجم قد تغلغل في وجدانه فيظهر علينا في صورة قد تكون أبهى وأكثر إثارة من النص الأصلي».

أ. عبد الله صالح جمعة

أديب ومهتم بالشأن الثقافي

الرئيس السابق لـ «أرامكو السعودية»

«لعل أقربَ سمةٍ تلخصُ مسيرةَ الدكتور حمد العيسى الثقافية حيويتُه الذهنيةَ وتوقده الإبداعي؛ مترجماً وباحثاً وسارداً تجعلُه يتّسم

حقيقة بوصف الـ «**عقل غير الهادئ**» الذي وسم كتاباً صدر ضمن ترجماته؛ فهو نشطٌ لا يسترخي، ومنتجٌ لا يتوقف، ومتابعٌ لا يكلّ، وهو ـ فوق هذه وإلى جانبها ـ صريحٌ في قوله، مباشرٌ في فعله؛ لم يُعرفْ مجاملاً أو مهادناً، ولا يعنيه إن خسر موقعاً ما دام قد كسب موقفاً. عرفتُ الدكتور العيسى عن بعد ثم تعاملتُ معه عن قرب، ووجدته «شخصاً ونصّاً» ذا معرفةٍ معمقةٍ وحضورٍ عذب والتزام وانتظام ودقةٍ تجعلُ العمل معه انسيابيّاً وصداقته مريحة، وهو ما انعكس على ترجماته التي تتماهى مع أصولها في بيانها؛ فتشرق لغةً وعرضاً، وهو نفسُه ما يجعل البحثَ عن المترجم المتميز مطلباً يوازي العناية بالكتاب المترجَم، وأحسب أن العيسى قد حقق المعادلةَ الصعبةَ التي بناها عبر تكامل ذاته المثقفة مع ذاته الإنسانية، وهذا الكتابُ نموذجٌ ضمن نماذجَ عديدة تؤكد السيرةَ والمسار».

د. إبراهيم بن عبد الرحمن التركي العمرو

كاتب ومفكر

رئيس القسم الثقافي بجريدة «**الجزيرة**» السعودية

«عندما يبدأ المترجم في نقل المعنى من لغة إلى أخرى يشعر أن كلاً منهما تقف كالطود الشامخ: أبيّة عصيّة. تستدعي عملية ترجمة النصوص جهداً ومراساً وحرفية عالية، فالتحدي الذي تواجهه هو تفكيك البنى والمكونات والخلفيات الثقافية من اللغة الأصل، ثم تحويلها إلى اللغة الهدف بما يناسب بُناها ومكوناتها وخلفياتها الثقافية. عندما تقرأ نصوصاً مترجمة للدكتور حمد العيسى تتعجب من قدراته الفائقة على دمج اللغتين تماماً حتى تغيب ملامح الأولى في الثانية، فبراعته تضيف إلى عناصر الجهد والمراس والحرفية عنصر الفن. تُقرأ نصوصه المعربة بسلاسة ويسر لأنه لا يترجم فقط،

بل يقوم بما يسمى «ترجمة ابتكارية» **Transcreation** أي النقل وإعادة الإنشاء سوياً، فهو يبتكر من خلال الكتابة وكأنه صاحب نص أصلي، ثم يتدخل بشروح ومقدمات وهوامش مفيدة. أما اختياراته للمواضيع المترجمة فهي دليل آخر على اطلاعه العميق وحسه الفني ومواكبته لمجريات الأمور في مجالات فنية وأدبية وسياسية واجتماعية وعلمية، ثم على حماسه لمشاركة القارئ في معارفه الواسعة».

د. لمياء باعشن
أستاذة النقد والأدب بقسم اللغات الأوروبية وآدابها
جامعة الملك عبد العزيز بجدة

«ثمة ميزة خاصة لصيقة بالترجمات التي يقوم بها الباحث والمترجم د. حمد العيسى: ترجمة أعمال تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة، من دون الارتهان إلى تخصص معيّن دون سواه. مع حالة هاشم صالح مثلاً، تتم الإحالة مباشرة على ترجمة أعمال الراحل محمد أركون؛ ومع أعمال صالح علماني، تكون الإحالة على نصوص أدبية محسوبة على المجال التداولي الإسباني؛ ومع أعمال مطاع صفدي، نحن إزاء ترجمة أعمال فلسفية محسوبة على المجال التداولي الفرنسي، وهذا أمر غير قائم بالمرة مع ترجمات العيسى؛ فقد يترجم للأديب وللشاعر ولعالم الاجتماع ولعالمة النفس وللناشط السياسي وللخبير أو المتخصص في هذا الحقل المعرفي أو ذلك، دونما التقيّد بأيّ اتجاه معيّن، سوى الانتصار لما قد نصطلح عليه بالرهان بـ «الترجمة التي تنفع الناس»، من رؤية شخصية للعيسى. ونحسبُ أنه كان صائباً في ذلك، وإلى حد بعيد».

منتصر حمادة
كاتب وناقد مغربي

«بدأت علاقتي بـ حمد العيسى مصادفة بعد أن قرأت له مقالة يُشرِّح (بتشديد الراء المهملة) فيها ترجمة لكتاب أصدره ناشر سعودي كبير، أوضح في مقالته تلك عدم أمانة المترجم وربما الناشر، ما دعاني لقراءة الكتاب بلغته الأصلية بعد قراءتي له بالعربية. ويا لهول ما وجدت! حيث كشف حمد بالفعل عن فضيحة ثقافية من الوزن الثقيل، وقام الناشر الكبير بمهاجمته بشراسة. وعرفاناً بجميل حمد الفكري، راسلته عبر الإنترنت شاكراً له فضله وشجاعته الأدبية. ومنذ ذلك الوقت توطدت صداقتنا فكرياً عبر البريد الإلكتروني (الإيميل) حتى تقابلنا شخصياً في البحرين لابتياع الكتب، ودأبنا على المنوال نفسه سنوياً منذ منتصف التسعينيات من القرن الماضي حتى إصابة حمد بجلطة في المخ عام ٢٠٠٨. وقد أهداني حمد ترجمته لمسرحية إشكالية بعنوان «وارث الريح» ثم أصدر مجموعته القصصية «**أسبوع رديء آخر**»، مبشرة بولادة قصصي بارع وربما روائي! ولكن حمداً واصل مشوار الترجمة بـ «**النصوص المحرَّمة**» وأتبعها بترجمة نوعية أخرى «**عقل غير هادئ**». بصراحة خفت أن تندثر موهبته الأدبية وصارحته بمخاوفي، وذكّرته أيضاً بالمقولة الشهيرة «الترجمة خيانة». لكن وبمرور الوقت أثبت حمد العيسى، بتنوع المواضيع التي قام بترجمتها، أن موهبة الترجمة لا تقلّ إبداعاً عن موهبة التأليف بخاصة إذا كان المترجم مثل صديقي حمد متمكناً من (أدب) اللغة المترجم منها، ناهيك عن امتلاكه ناصية اللغة العربية».

د. فهد النّوري

استشاري في الوقاية من أمراض القلب والأوعية الدموية

ومهتم بالشأن الثقافي

تقديم بول كوخْرَن(*)

كراس مهم في الوقت المناسب(**)

أنت عزيزي القارئ/ القارئة، تحمل بين يديك كنزاً نادراً: إنها نصوص لبعض خطب ومقالات وحوارات المؤرخ الأمريكي الراحل هوارد زِنْ التي لم تجمع وتنشر من قبل والتي من الممكن جداً أن تغيِّر من الطريقة التي ترى وتتفاعل فيها مع العالم. حقاً إن هذه عبارة جريئة، ولكنها ليست مبالغة مني كما ستتأكد بعد قراءة هذا الكراس. لقد كان زِنْ يملك دائماً تلك القوة على التأثير ككاتب وناشط سياسي ومؤرخ، لجعل الناس تتساءل عن حقيقة أمور كالسلطة والمجتمع والسياسة والترفيه.

(*) ولد بول كوكرَن (أو كوخْرَن باللهجة الاسكتلندية)، في قبرص لأبوين من اسكتلندا وإيرلندا، وتلقى تعليمه في بريطانيا وأمريكا، وانتقل إلى لبنان في عام ٢٠٠٢، لدراسة الماجستير في **دراسات الشرق الأوسط** في الجامعة الأمريكية. دخل بول كوخْرَن عالم الصحافة بالصدفة عندما تولى وظيفة بدوام جزئي كمحرر لصحيفة **ديلي ستار** في بيروت، وبعد ذلك كمحرر متفرغ لقسم الأعمال اليومي في الصحيفة نفسها. ومنذ عام ٢٠٠٦، تفرغ بالكامل للعمل كصحافي مستقل (Freelance) ليكتب عن قضايا السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة في منطقة الشرق الأوسط وغيرها. وقد تم نشر كتابات بول كوخْرَن تقريباً في ٦٦ مطبوعة حول العالم. (المترجم).

(**) ترجم د. حمد العيسى هذا التقديم.

إحدى أهم مهارات زِنْ ككاتب ومؤرخ هي قدرته على شرح فكرة أو فترة من التاريخ بأسلوب نثري بسيط وجذاب لتتضح من أول قراءة فحوى واتجاه عباراته، ما يشجع على إعادة القراءة للتعمق في أفكاره. لقد كان ذلك أحد أهم العوامل التي ساهمت في نجاح كتابه الأكثر شهرة **تاريخٌ شعبيٌ للولايات المتحدة: ١٤٩٢ ـ الآن**[١]، الذي صدر عام ١٩٨٠. لكن أسلوب الكتابة هو وسيلة لتقديم المحتوى، أي القصة، وهوارد زِنْ فعل ذلك عن طريق تقديم الماضي، كما في عنوان كتابه الأشهر، من وجهة نظر الشعب، التي تختلف دائماً عن وجهة نظر النخبة التي كالمعتاد يصطفّ فيها المشتبه بهم تاريخياً: السلاطين والأمراء والملوك والرؤساء والجنرالات ونخبة سيداتي وسادتي.

التاريخ أكثر من تواريخ وأسماء للرجال الكبار؛ فوراء هذه الشخصيات هناك من لا يظهرون بسبب عدم تركيز حامل كاميرا التاريخ عليهم، إنهم الناس المهمَلين والمهمَّشين أي الجماهير: أنت وأنا. ومن ضمننا هناك أولئك الذين يدعمون ويعملون لتحقيق أهداف ـ عمداً أو عن غير قصد ـ النخبة السياسية والاقتصادية المهيمنة، والبعض الآخر متردِّد حول السلطة ومن يمارسونها، وهناك أولئك الذين يشكون من علل الوضع الراهن، وآخرون يريدون هدم النظام بأي وسيلة ضرورية. فالجميع يؤدون أدوارهم الدقيقة التي تساهم في صنع المستوى الشامل للتاريخ البشري.

يستخدم زِنْ هذا الأسلوب لجذب القارئ، وليثبت أن الماضي مثير للاهتمام حقاً، بمثل أهمية الزمن الحاضر، وأن هناك

---

(١) صدر بالعربية عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر عام ٢٠٠٥، ترجمة أ. شعبان مكاوي، بعنوان **التاريخ الشعبي للولايات المتحدة** (الكتاب رقم ٧٣٦). (المترجم).

حاجة ماسّة لفهم التاريخ لمساعدتنا على فهم العالم الذي نعيش فيه. هذا يمكن أن يتأتّى من خلال مناقشات مع أناس عاديين عاشوا خلال تلك الفترة التاريخية التي تتم مناقشتها. لقد شهدت أعين جدتي التي تبلغ من العمر ٩٧ عاماً تحولات في العالم منذ ولادتها في عام ١٩١٥، وحتى الآن. وغُرست في عقلها قصص جدَّتها أيضاً، ما يعني العودة للوراء ما يزيد على ١٥٠ عاماً. الماضي حقاً ليس بعيداً. ولكن لأسباب عديدة، لا يتم تدريس التاريخ هكذا في معظم المدارس. ما يتم تدريسه هو تاريخ انتقائي، ولملء الفجوات التاريخية المهملة لا بد للمرء من المبادرة بالتفكير العميق والبحث.

وهذا يعود بنا إلى هذه المجموعة التي تحتوي على بعض ما لم ينشر سابقاً من خطب ومقالات وحوارات زِنْ في أواخر أيامه قبل وفاته في عام ٢٠١٠. أول خطبتين كانتا رداً على استغلال إدارة جورج دبليو بوش هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، لشن حروب حيث أراد زِنْ تشجيع الناس على التساؤل عن دوافع الحكومة في شن حربين ضد أفغانستان والعراق، مستخدماً التاريخ كمثال لتسليط الضوء على أفراد قاوموا طغيان السلطة وجهروا بالحقيقة.

زِنْ يعتبر هذا دوراً أساسياً للفنانين بخاصة وللمبدعين بصورة عامة ولا سيما في زمن الصراع. ومن هنا تأتي أهمية ما أسميه بـ «الترفيه التعليمي» أو «التعليم بالترفيه» (Edutainment)، والذي يتناوله زِنْ بطريقة رائعة في **الفصل الثالث** المعنون **قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً**، والذي يجعل المرء يفكر نسبياً في كل القصص التي يمكن أن تنتج عن تاريخ العالم العربي الطويل والنابض بالحوادث المثيرة والغامضة والتي لا ترويها على حقيقتها

المسلسلات والأفلام العربية مطلقاً[٢]. حقاً إن هذا الكراس ـ على الرغم من تركيزه على الولايات المتحدة ـ يمكن أن يطلق موجات أفكار أوسع وأكثر شمولاً.

أحداث الانتفاضات العربية (والثورات المضادة التي أعقبتها)، حيث انتفضت الشعوب البائسة لتحدّي وإسقاط السلطات المستبدة، هي شهادة على دور الشعوب في حركة التغيير التي يرويها التاريخ. ومن هذا الكراس، سيتعرف القارئ على النضالات التي وقعت في التاريخ الأمريكي، على الرغم من عمره القصير مقارنة بباقي العالم، بما في ذلك نضال اتحاد عمال العالم والمناضلة إيما غولدمان، وغيرهما. وعلى كل حال، فالتاريخ الأمريكي، مثل بقية تاريخ العالم الحديث، هو تاريخ مليء بنضالات من الشعوب وإلى الشعوب.

لقد قدم حمد العيسى، خدمة كبيرة للمكتبة العربية في ترجمة هذا الكراس المكثف فكرياً والمليء بالعبر والدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ. وعندما قرر حمد، ترجمة الكراس إلى اللغة العربية، أضاف إليه بذكاء ثلاثة فصول[٣] اختارها بمهارة لتكمل وتعزز رسالة الكراس.

ترجمة هذا الكراس إلى العربية لا يمكن أن تأتي في وقت أفضل من الآن بالنظر إلى ما يحدث إقليمياً وعالمياً. ما يجري ليس شأناً مباشراً وبسيطاً، ولا يمكن أن يفهم عبر مشاهدة وسائل الإعلام

---

(٢) بل ولا ترويها حتى الكتب العربية للأسف، ما يجعل المواطن العربي في الغالب يضطر إلى قراءة الكتب الأجنبية لكي يفهم تاريخ وطنه ومنطقته. (المترجم).

(٣) انظر: حمد العيسى، **هوارد زِنْ: قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً**، الفصول ٥ ـ ٦ ـ ٧. (المحرر).

السائدة. يجب دفع العقل للتفكير خارج الحدود التي ترسمها السلطات للفكر ـ كما دعا زِنْ ـ حتى يكون هناك تغيير إيجابي تدريجي. والفنانون هم دائماً الطليعة لإحداث هذا التغيير.

دعونا جميعاً لا نشك أن الفنانين والكتاب والمعلمين والمثقفين من عامة الشعب عليهم واجب الوقوف وقول الحقيقة في الشرق الأوسط، كما في أي مكان آخر على هذا الكوكب. وكما كتب زِنْ ـ بحق ـ عن واجب الناس في التعبير والمشاركة في اتخاذ القرار سواء كان ضد الحرب، أو في صنع السياسة بشكل عام: «**شأن من إذاً؟ المؤرخ يقول إنه ليس شأني، والمحامي يقول إنه ليس شأني، ورجل الأعمال يقول إنه ليس شأني، والمبدع يقول إنه ليس شأني، إذاً: شأن من هذا الأمر؟! وهل يعني هذا أنكم ستتركون أمر حسم أهم القضايا في العالم إلى أولئك الذين يتولون حكم هذا البلد؟ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة؟! ألم نحصل على خبرة تاريخية كافية عن ما يحدث عندما نترك القرارات المهمة بيد الناس الذين في البيت الأبيض أو الكونغرس أو المحكمة العليا أو أولئك الذين يتحكمون في الاقتصاد؟!**».

نحن نعيش في أوقات غير عادية، وهو ليس الوقت المناسب لتستهلكنا مشاهد مثيرة مبرمجة بعناية على شاشات الفضائيات السائدة ولكن ينبغي أن يستهلكنا ما هو حقيقي، وأن نشارك بنشاط وفعالية في التغيير الإيجابي التدريجي نحو الحرية والعدالة والمساواة. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا عندما يعارض ويتحدى الناس السلطة المستبدة، ويفعلون ذلك بأخطر الأسلحة: المعرفة والأفكار.

ومن حسن الطالع أن يصدر هذا الكراس الهام خلال فترة الربيع العربي وهو ما يجعلني أحث وأدعو المبدعين العرب للسعي

إلى مقاومة فكرة الرقابة الشديدة على الأدب والفن في بلدانهم كافة ودول الخليج العربي خاصة.

وأختم بحكاية من الانتفاضة المجرية ضد الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٥٦، جديرة بالعرض: يؤخذ معارض للاستجواب من قبل الشرطة السرية. يُسأل إذا كان مسلحاً؟ ويرد بـ «نعم»، ثم يضع يده في جيب سترته ويخرج ببطء قلماً ويضعه على الطاولة!

بول كوخْرَن
كاتب بريطاني مستقل
نيسان/ أبريل ٢٠١٢
بيروت، لبنان

كلمة المترجم
مسؤولية المبدعين

«إن من مسؤولية المثقفين أن يقولوا الحقيقة ويفضحوا الأكاذيب». هذه الجملة قالها المفكر الأمريكي الفذ نعوم تشومسكي، في محاضرة له بعنوان «مسؤولية المثقفين» بجامعة هارفارد عام ١٩٦٦، ضمن نشاطه الفكري والعملي لمناهضة حرب فيتنام. ولو بدَّلنا كلمة مثقفين بـ مبدعين، لما تغيّر المعنى، بل زادت قوة وجمال الفكرة. ولكن لا بد من توضيح وإيضاح هنا حول ترجمتنا لمصطلح آرتيست (Artist)، أي «فنان»، الذي يتكرر كثيراً في هذا الكراس حيث ترجمناه ليعبّر عن المعنى الأوسع والشامل لـ آرتيست أي «مبدع» بدل مجرد «فنان»، والمبدع هو المعنى الشامل للفنان كما هو معروف. فقد جرت العادة على فهم مصطلح «فنان» بحسب المعنى الضيق المحدود ليعني الرسم والموسيقى والتمثيل والغناء... إلخ. وترجمته بحسب هذا المعنى الضيق لا تتّسق مع محتوى هذا الكراس الذي يتحدث فيه مؤلفه هوارد زِنْ عن دور الصحافي والمؤرخ والروائي والشاعر والرسام والفنان (بمختلف أنواع الفن من موسيقى وتمثيل وغناء ورسم ونحت... إلخ) في مقاومة فكرة الحرب.

ويلقي زِنْ مسؤولية كبرى على عاتق المبدعين لتغيير مجتمعاتهم نحو الأفضل ليس في مناهضة فكرة الحرب فحسب، ولكن كما سيفهم كل قارئ حصيف من سياق كلام المؤلف أن المقصد هو أن للمبدع دوراً يجب أن يكون إيجابياً لتطوير المجتمع الذي يعيش فيه، ويمكن القول إن زِنْ يطالب المبدع بدور شجاع في مقاومة الاستبداد، لأن الحرب لا يفرضها سوى الاستبداد ولو قال المبدعون في كل مكان «كلا!!!» في مواجهة الاستبداد، لزال الطغيان! ولكي يقوم المبدع بواجبه يجب عليه أولاً أن يسمو ويحلِّق بفكره لما بعد دائرة التفكير المسموح به التي ترسمها السلطة دائماً ويتقوقع داخلها «لا شعورياً» وبكسل لذيذ الناس حتى بعض كبار المفكرين وأعضاء النخبة كما يشرح زِنْ بالأمثلة المدهشة.

حسناً، هذا كراس صغير الحجم ولكنه عظيم القيمة، في رأيي طبعاً. لقد اخترت ترجمة هذا الكراس الذي صدر باللغة الإنكليزية في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، لثلاثة أسباب: **أولاً**، لكي أعرِّف القراء العرب بهذا المفكر والمؤرخ الكبير والنبيل البروفيسور هوارد زِنْ، الذي يناصر قضايا المسحوقين في كل مكان، وهو خير من ينطبق عليه وصف «نصير الحفَّاي» كما نقول في منطقة الخليج، أي نصير الحفاة والمسحوقين من الضعفاء المساكين. ويغلب على ظني أن المؤلف شبه مجهول لعموم القراء العرب وبخاصة من الذين لا يقرأون بالإنكليزية، حيث لم تترجم له سوى بضعة كتب لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ولم تنل حظها من الدعاية والانتشار. **ثانياً**، وجدت في هذا الكراس أفكاراً رائعة ومبتكرة ورسالة نبيلة عن مناهضة فكرة الحرب لم يسبق لي قراءتها بالعربية، وهي الرسالة التي كرّس المؤلف حياته العملية والشخصية لها، حيث شدد على عدم الانسياق وراء هستيريا «الشوفينية الوطنية المتطرفة»

JINGOISM- كما شرح زِنْ ببراعة ومهارة كل ما يخص غزو أمريكا لأفغانستان والعراق بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر الإرهابية. ووضّح كيف تعرّض هو نفسه للطعن في وطنيته لمجرد أنه شكك في جدوى الحرب ضد الإرهاب، لأن الحرب ـ بحسب زِنْ ـ هي بدورها إرهاب ولا يجوز مقاومة الإرهاب بالإرهاب كما شرح!! **ثالثاً**، وجدت الكراس مناسباً لجوّ الربيع العربي الذي نعيشه. . . .

ودعوى الشوفينية الوطنية المتطرفة التي حذّر منها زِنْ تأتي على شكل «عاصفة هستيرية» لا تُبقي ولا تَذر، تغسل أدمغة الناس، حتى كبار المثقفين، وتسوقهم لتأييد وتبرير توجهات السلطة للحرب وغيرها من القرارات حتى لو كانت ضد مصالح شعوبهم على المدى الطويل، وما غزو العراق عنّا ببعيد. ويؤكد زِنْ أن مناهضته لفكرة الحرب سببها في المقام الأول أن الحرب ينتج منها حتمياً ـ كما يشرح بالأدلة التاريخية المذهلة ـ ضحايا أبرياء من المدنيين مهما كانت درجة تطوُّر ودقة الأسلحة. وكما سيرد في سياق فصول الكراس، يقوم زِنْ بفضح السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية منذ تأسيسها كدولة مستقلة، ويكشف تناقض سياساتها العملية مع مبادئها المثالية التي وردت ـ مثلاً ـ في إعلان الاستقلال الأمريكي الصادر في ٤ تموز/ يوليو ١٧٧٦، والذي ينص على «أننا نؤمن بالحقائق البديهية التي تقرر أن الناس جميعاً خلقوا سواسية، وأن الله وهبهم حقوقاً معيّنة ثابتة، منها حق الحياة والحرية والسعي إلى تحقيق السعادة»! ويضرب الأمثلة التاريخية على مخالفة الولايات المتحدة لمبادئها مثل احتلالها لأراضي المكسيك ظلماً وعدواناً، وكذلك احتلالها للفيليبين وغيرها الكثير، وتحوُّل تلك الأراضي المكسيكية المحتلة لاحقاً إلى ولايات أمريكية ذات مساحات

وثروات هائلة مثل تكساس ونيو مكسيكو وكاليفورنيا. ولا يكاد يجاري زِنْ في هذه الشجاعة الخارقة سوى رفيق دربه المفكر نعوم تشومسكي وهو - في رأيي ـ صاحب أقوى وأقصر عبارة هجاء للولايات المتحدة (تتكون من خمس كلمات فقط) تعادل مئات بل آلاف المحاضرات والكتب والخطب الحماسية العربية من كل من يناهضون سياسات الولايات المتحدة، حيث قال تشومسكي ببلاغة مذهلة «**الولايات المتحدة ليست ضحية بريئة!**» وذلك في مناظرة جرت بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر الإرهابية وترجمناها في كتابنا **النصوص المحرّمة**.

يقول وليام فولكنر «الماضي لا يموت مطلقاً، بل إنه ليس حتى ماضياً»، ولذلك يعود زِنْ إلى الماضي ليستخرج منه حوادث تؤكد وجهات نظره حول خطورة فكرة الحرب وكونها تدمّر المدنيين الأبرياء لا محالة بسبب طبيعة تركيبتها. كما إن الحرب التي يقتل فيها الجنود البسطاء غالباً يجب أن تكون آخر حل وليس أول حل وطبعاً بعد استنفاد جميع فرص الحل السلمي حتى لو تسبب ذلك في بعض الخسائر والتنازلات المادية أو المعنوية، وذلك لأن وقود الحرب يشتعل من هؤلاء الجنود المساكين الذين يدخلون الجيش للحصول على لقمة عيش في الغالب، ولا يعرفون سبب خوض الحرب الحقيقي، ولكنهم أول من يدرك نهايتها كما قال **الفيلسوف أفلاطون بحق: «الجنود القتلى فقط هم من يعرفون ويشاهدون نهاية الحرب»**. وبينما يموت الجنود يبقى من قرروا شن الحرب لا يمسّهم ولا أبناءهم وبناتهم أي ضرر!!

لقد ضرب المؤلف العديد من الأمثلة لمبدعين قالوا بشجاعة: كلّا! ومن حسن الطالع أنني انتهيت قبيل أيام من قراءة كتاب عن سيرة حياة الموسيقار العملاق والعبقري رياض السنباطي، من

تأليف المؤرخ الموسيقي السوري الأستاذ صميم الشريف[1]، ووجدت من المناسب أن أروي منه فقرات توضِّح المقصود بدور المبدع في مقاومة الاستبداد. يقول الأستاذ صميم الشريف:

«في إحدى حفلات معهد الموسيقى بالقاهرة، وبينما كان السنباطي يؤدي على عوده بعض التقاسيم، سرت همهمة بين الحضور، وتوجهت الأنظار نحو الرجل الخطير الذي دخل القاعة مع حاشيته، قبل أن يتوجه برفقة مدير المعهد نحو المقعد المخصص له. لم يكن هذا الرجل الخطير سوى إسماعيل صدقي باشا [١٨٧٥ ـ ١٩٥٠]، رئيس وزراء مصر آنذاك وجلّادها، والرجل الذي وقف وحده مع الإنكليز والملك ضد شعب مصر وأمانيه القومية في الحرية والاستقلال، وهو الذي قمع التظاهرات الشعبية والإضرابات الطلابية بالرصاص، واعتقل وزجّ بالمئات في السجون، وكان مكروهاً من الشعب، ليس بسبب ولائه للإنكليز فحسب، وإنما لعدائه السافر لحزب الوفد الذي يقف من ورائه الشعب المصري بأسره. لقد رأى السنباطي خلال لحظات لم تستمر طويلاً في صورة هذا الرجل آلام الشعب كلها وكراهيته له. رأى فيه الرصاص الذي صرع عشرات المواطنين، والتظاهرات الدامية، والظلم والاستبداد، فلم يستطع الاستمرار في العزف، **إذ ما كاد إسماعيل صدقي باشا يتخذ مكانه في الصف الأمامي من القاعة، ومن حوله حاشيته والمتزلفون له، حتى قطع السنباطي العزف، ونهض حاملاً عوده بيمينه، ثم قفز من على خشبة المسرح إلى القاعة، أمام دهشة الحضور، وغادر القاعة وهو يتمتم بكلمات**

---

(١) انظر: **السنباطي**، تأليف المؤرخ الموسيقي السوري صميم الشريف، الهيئة العامة السورية للكتاب، سلسلة دراسات موسيقية ـ رقم ٢، ٢٠١٠، ص ٨٢ ـ ٨٣. (المترجم).

مبتورة وغاضبة: «ده كلام... أعزف للرجل ده...»! ولحق به المسؤولون عن المعهد لثنيه عن المغادرة، ولكنه رفض وأصر على موقفه».

انتهت رواية الأستاذ صميم الشريف للحادثة. وطبعاً دفع السنباطي ثمن موقفه هذا عبر هجمات صحافية قاسية ضده وعدم تعاون شركات الأسطوانات والإذاعة معه، ولكن كل هذه المعاناة زالت بعد سقوط وزارة إسماعيل صدقي باشا الذي سمي عهده بـ «القبضة الحديدية»، وعاد السنباطي إلى الأضواء والعمل برأس شامخة وبحرية وعزة نفس وكرامة وكبرياء بعد أن قال «كلا» للاستبداد.

كما يمكن أن نستحضر عند قراءة هذا الكراس، مواقف المغني المصري الضرير الراحل الشيخ إمام (١٩١٨ ـ ١٩٩٥)، ورفيقه الشاعر أحمد فؤاد نجم (م. ١٩٢٩)، ومعهما ضابط الإيقاع الراحل محمد علي (١٩٣٠ ـ ٢٠٠٩) وهو في الأصل فنان تشكيلي تلقائي، حيث شكلوا فرقة غنائية ثورية تغنّي ضد الظلم والفساد والاستبداد، ودخلوا السجن عدة مرات. وكانوا أقسى من هجا عبد الناصر، وأكثر من سخر من السادات ومبارك. وهناك بالطبع على سبيل المثال لا الحصر: الفنان زياد الرحباني ورسام الكاريكاتير الراحل ناجي العلي والفنان مارسيل خليفة والفنان أحمد قعبور والفنان سميح شقير، والممثلة فدوى سليمان، والشاعر أحمد مطر والشاعر علي الدميني والمخرج خالد يوسف والكاتب والسيناريست المبدع بلال فضل وفرقة ناس الغيوان المغربية والكاتب الصحافي المغربي الأستاذ رشيد نيني الذي خرج للتوّ من السجن لأنه تخطى في كتاباته حدود التفكير المسموح به، وغيرهم كثير لحسن الحظ. ويمكن أن نذكر بفخر موقف اللاعب المبدع

محمد أبو تريكة (م. ١٩٧٨) لاعب كرة قدم في النادي الأهلي المصري ومنتخب مصر الذي سجل هدفاً في مباراة دولية ثم رفع بسرعة قميصه بحركة ماهرة ليظهر تحته شعار: «تعاطفاً مع غزة المحاصرة» باللغتين العربية والإنكليزية ليوصل تلك الرسالة المؤثرة لملايين المشاهدين في العالم خاصة بعد عرضها في نشرات الأخبار.

ويحضرني هنا أيضاً الروائي المصري الكبير صنع الله إبراهيم، الذي رفض بشموخ وشجاعة هائلة قبول جائزة ملتقى القاهرة للإبداع الروائي، لأنها ـ في رأيه ـ ممنوحة من وزارة في نظام شمولي واستبدادي يقيم علاقة مع إسرائيل. ولا يمكن أن ننسى موقف الأديب الإسباني الكبير المناصر لقضية فلسطين خوان غويتيسولو (م. ١٩٣١)، الذي رفض قبول جائزة القذافي العالمية للأدب، لأنها تحمل اسم حاكم مستبد وديكتاتور.

وختاماً، أجد من المناسب سرد فقرة من تأبين المفكر نعوم تشومسكي للمؤرخ هوارد زِنْ كما جاءت في مجلة **تايم** الأمريكية (٢٢ شباط/ فبراير ٢٠١٠):

«أينما كان هناك صراع من أجل السلام والعدالة، كان هوارد زِنْ على الخطوط الأمامية يلهم الآخرين بنزاهته وجاذبيته وبلاغته، وطرافته، وتفانيه في الدعوة المطلقة إلى اللاعنف والشرف. لقد غيّر بمفرده ضمير جيل كامل، ومن المستحيل أن نحصي ذلك الكم الهائل من الناس الذين أثر فيهم من خلال كتبه وحياته المهنية. **لقد ترك بصمته على كيفية قراءة وفهم التاريخ، والطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الحياة المستقلة والكريمة والشريفة للمفكر الحر**».

ولا يفوتني أن أشكر صديقي الكاتب البريطاني بول كوكرن (أو كوخْرَن باللهجة الاسكتلندية) لأنه دعمني معنوياً عندما أخبرته برغبتي في ترجمة هذا الكراس وتفضّل بكتابة **تقديم** له. والشكر موصول لزوجتي الغالية نادية بو شعيب عبد الله رقيب التي كتبت بيدها هذا الكراس بالكامل ثم طبعته على اللاب توب بسبب وعكة صحية ألزمتني الفراش، وكنت أقرأ لها الترجمة مباشرة من الكراس وأنا مستلقٍ على السرير وهي تكتب كلمة كلمة حتى انتهينا بحمد الله وتوفيقه.

أرجو أن يروق هذا الكراس للقرّاء الكرام، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. حمد بن عبد العزيز العيسى
١٤ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢
الدار البيضاء ـ المملكة المغربية

(هذه الصفحة من إعداد المترجم)

«أول ضحية في الحرب هي الحقيقة»

إسخيلوس

«لو طبقنا قوانين محاكمات نورمبرغ، لوجب شنق كل رئيس أمريكي أتى بعد الحرب العالمية الثانية»

نعوم تشومسكي

«التاريخ لا يعيد نفسه وإذا فعل فهو في المرة الأولى دراما مؤثرة، وفي المرة الثانية مهزلة مضحكة»

محمد حسنين هيكل في كتاب
«مبارك وزمانه من المنصة إلى الميدان»

(هذا القسم من إعداد المترجم)

هوارد زِنْ: سيرة موجزة



هوارد زِنْ (١٩٢٢ ـ ٢٠١٠)

هوارد زِنْ: سيرة موجزة

هوارد زِنْ (١٩٢٢ ـ ٢٠١٠)، مؤرخ وناقد اجتماعي وسياسي أمريكي يساري. ولد زِنْ عام ١٩٢٢، في حي بروكلين في مدينة نيويورك، لأبوين مهاجرين يهوديين من الطبقة الكادحة. عمل في شبابه في حوض لإصلاح السفن، ثم شارك في الحرب العالمية الثانية كقاذف قنابل من الطائرات. شكّلت مشاركته في الحرب بداية وعيه السياسي الذي عُرف به في ما بعد ليصبح مناهضاً لفكرة الحرب. حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة كولومبيا المرموقة عام ١٩٥٨، مع تخصصٍ فرعي في العلوم السياسية. وفي عام ١٩٥٩، عُيِّن زِنْ رئيساً لقسم التاريخ والعلوم الاجتماعية في كلية سبيلمان، حيث شارك في حركة الحقوق المدنية. وتعاون مع المؤرخ ستاوغتون ليند، في توجيه الطلاب والناشطين وتوعيتهم لما له علاقة بالحقوق المدنية، وأقيل من عمله بعد أن وقف مع الطلاب في مطالبهم بخصوص الحقوق المدنية والمساواة، وعلّق على تلك الفترة بقوله: «لقد تعلمت من طلابي أكثر مما تعلموا مني».

أصدر عام ١٩٨٠، كتابه الكلاسيكي غير المسبوق **تاريخٌ شعبيٌّ للولايات المتحدة: ١٤٩٢ ـ الآن**، والذي روى فيه تاريخ أمريكا ـ

لأول مرة ـ من وجهة نظر المحرومين والمستضعفين. نجح الكتاب الضخم ـ الذي يقع في ٧٦٨ صفحة ـ نجاحاً ساحقاً، وأصبح من أكثر الكتب مبيعاً. قال ملحق مراجعة الكتب الشهير في جريدة **نيويورك تايمز** عن الكتاب: «المؤرخون سيعتبرونه ـ بحق ـ خطوة في اتجاه نسخة معدّلة ومتماسكة من التاريخ الأمريكي». أعيد طبع الكتاب مرات عديدة، وفي ربيع عام ٢٠٠٣، أقيم احتفال خاص بمناسبة بيع النسخة الرقم مليون منه.

كان قبيل وفاته في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠، أستاذاً فخرياً في قسم العلوم السياسية في جامعة بوسطن، وكان من أبرز مناصري حركة الحقوق المدنية والحركات المناهضة للحرب منذ الستينيات.

يعتقد زِنْ، أن وجهات النظر في كتب التاريخ التقليدية محدودة غالباً وتمثل مصلحة طبقة مهيمنة معيّنة، ولذلك ألّف كتابه المهم **تاريخٌ شعبيٌ للولايات المتحدة: ١٤٩٢ ـ الآن**، لتقديم وجهات نظر أخرى في التاريخ الأمريكي. كتاب زِنْ يصور كفاح سكان أمريكا الأصليين ضد الغزو الأوروبي ثم احتلال الولايات المتحدة لأراضيهم وطردهم منها. كما يصوّر كفاح العبيد ضد العبودية، ونضال النقابيين وغيرهم من العمال ضد الرأسماليين، ونضال النساء ضد النظام البطركي الأبوي، ونضال الأمريكيين من أصول أفريقية من أجل الحقوق المدنية. ولحسن الحظ فقد صدر هذا الكتاب الهام بالعربية من ترجمة الأستاذ شعبان مكاوي عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر عام ٢٠٠٥ بعنوان **التاريخ الشعبي للولايات المتحدة** (الكتاب رقم ٧٣٦).

زوجته روزلين، كانت فنانة وقد توفيت عام ٢٠٠٨. إضافة إلى الفن، اشتغلت كمحررة وقامت بتحرير جميع كتب زوجها والعديد من مقالاته. وقد أنجبا مايلا وجيف، ولهما منهما خمسة أحفاد.

يقول زِنْ عن الحياد في كتابة التاريخ:

«في عالم يمضي في طرق محددة سابقاً، حيث الثروة والقوة محددة سلفاً، الحياد يعني قبول الأشياء كما هي عليه الآن. إنه عالم من المصالح المتضاربة: حرب ضد سلام، ووطنيّة ضد عالميّة، عدالة ضد جشع، وديمقراطيّة ضد نخبويّة. ويبدو لي الأمر أنه من المستحيل، وأيضاً من غير المرغوب فيه، أن تكون محايداً في مثل هذه النزاعات. أنا لا أدعي أنني محايد، ولا أريد أن أكون كذلك. أنا أحاول أن أكون عادلاً بطرح الأفكار المتضادة وعرضها بدقة».

ألّف زِنْ أكثر من ٤٠ كتاباً منها ثلاث مسرحيات وسيرة ذاتية له، كما أُنتج عنه فيلم وثائقي مهم ومثير بعنوان «لا يمكن أن تكون محايداً في قطار منطلق».

ويعتبر المفكر الفذ نعوم تشومسكي، كتاب زِنْ لعام ١٩٦٧ **فيتنام: منطق الانسحاب**، أهم كتب زِنْ «لأنه كان أول شخص تجرأ ليقول، بصوت عال، وعلناً، وبطريقة مقنعة، إن حرب فيتنام هذه ببساطة يجب أن تتوقف، ويجب أن نخرج من دون شروط، لأنه ليس من حقنا أن نكون هناك، لأن هذا عمل من أعمال العدوان، انسحبوا، نقطة. ومن المثير للدهشة في ذلك الوقت أنه لم يتجرأ أحد في أمريكا على كتابة عرض للكتاب. وفي الواقع، لقد سألني

زِنْ إذا كنت أود كتابة عرض له في مجلة **رامبارتس** فقط حتى يعرف الناس عن صدور الكتاب، وكتبت عنه».

في إحدى مقابلاته الأخيرة قال زِنْ إنه يود أن نتذكره «لإدخاله طريقة مختلفة للتفكير عن العالم، عن الحرب، عن حقوق الإنسان، وعن المساواة»؛ وأيضاً «لمساهمته في زيادة وعي الناس ليدركوا أن القوة التي تبدو في أيدي أصحاب الثروة والسلاح، ليست قوة حقيقية، بل القوة الحقيقية هي التي توجد عند الناس أنفسهم، أي الشعب، وأنهم يستطيعون استخدامها وقد استخدموها بالفعل في نقاط تاريخية معينة وحاسمة. الشعب الأسود في الجنوب الأمريكي استخدمها، واستخدمها النساء في الحركة النسائية، واستخدمها الناس في الحركة المناهضة للحرب، كما استخدموها في البلدان الأخرى ليطيحوا بالطغيان والاستبداد».

من أقوال هوارد زِنْ

هذه مجموعة مختارة من مقولات المؤرخ هوارد زِنْ مقتبسة من كتبه وخطبه وحواراته:

«معارضة الحكومة أو السلطة هي حالياً أهم شكل من أشكال الوطنية».

«يتعلم الأمريكيون في المدارس أن أمتهم حضارية وإنسانية. ولكن، غالباً، كانت تصرفات الولايات المتحدة غير حضارية وغير إنسانية».

«إذا استطاع القائمون على مجتمعنا - الساسة ورؤساء الشركات، وأباطرة الإعلام ـ الهيمنة على أفكارنا، فإنهم يوطدون

سلطتهم. وعندها لا يحتاجون لشرطة تقوم بدوريات في الشوارع لأننا سوف نتحكم بأنفسنا نيابة عنهم».

«في الولايات المتحدة اليوم، تُعلَّق وثيقة إعلان الاستقلال على جدران المدارس، ولكن السياسة الخارجية تتبع مكيافيللي».

«معظم الحروب، على أية حال، تبرر نفسها على أنها مساعٍ إنسانية لمساعدة الناس».

«أحد أهم نتائج الحرب هو تقليص حرية التعبير».

«لا يوجد قماش كبير بما يكفي لتغطية عار وخزي قتل الأبرياء في الحروب».

«الحرب في حد ذاتها هي العدوّ الأول للجنس البشري».

«نحن بحاجة لاتخاذ قرار أننا لن نذهب إلى الحرب أياً كان السبب الذي يزعمه الساسة أو تزعمه وسائل الإعلام، وذلك لأن الحرب في عصرنا لا تميّز دائماً بين الضحايا، وهي حرب ضد الأبرياء والأطفال».

«عندما «لااا» يفهم الناس أن الحكومة لا تأخذ مصالحهم في عين الاعتبار، فإنهم أكثر عرضة للموافقة على خوض حرب».

«تاريخياً، أكثر الأشياء فظاعة مثل الحرب والإبادة الجماعية والعبودية لم تنتج بسبب العصيان (Disobedience) ولكن بسبب الطاعة (Obedience)».

«كيف يمكن أن تُشنّ حرب على الإرهاب عندما تكون الحرب نفسها نوعاً من الإرهاب؟!».

«الأفعال الصغيرة، عندما يقوم بها ملايين الناس، يمكنها أن تحوِّل العالم».

«أعتقد أن الناس مبهورون بخطابية أوباما، ولكن يجب عليهم أن يبدأوا في فهم أن أوباما سيكون رئيساً مديوكرا (رديئاً) ـ وهو ما يعني، في وقتنا الحاضر، أنه سيكون رئيساً خطراً ـ إلا إذا كان هناك تحرك وطني يدفعه في اتجاه أفضل».

«أكثر فعل ثوري يمكن للمرء أن يقوم به في عصرنا هو قول الحقيقة».

«في مثل هذا العالم المتصارع، عالم الضحايا والجلادين، فإن مهمة المثقفين هي كما قال ألبير كامو ـ أن لا يكونوا مع الجلادين».

«المبدأ الديمقراطي المنصوص عليه في وثيقة إعلان الاستقلال، أكد أن الحكومة ثانوية، وأن الناس الذين أنشأوها هم الأساس. وبالتالي يتوقف مستقبل الديمقراطية على الناس ووعيهم المتزايد عن السبيل اللائق للترابط مع إخوانهم من بني البشر في جميع أنحاء العالم».

«الصلبان والمشانق هما الخلطة التاريخية القاتلة».

«العصيان المدني (Civil Disobedience) ليست مشكلتنا. مشكلتنا هي الطاعة المدنية (Civil Obedience). مشكلتنا هي أن الناس في جميع أنحاء العالم يطيعون ما يمليه عليهم القادة، ما يؤدي إلى قتل الملايين. مشكلتنا هي أن الناس في كل أنحاء العالم مطيعون في مواجهة الاستبداد والفقر والمجاعة والغباء والحرب

والقسوة. مشكلتنا هي أن الناس مطيعون في حين أن السجون مليئة بصغار اللصوص، واللصوص الكبار يديرون البلاد. هذه هي مشكلتنا الحقيقية».

«يقلقني أن طلابي بعد تخرجهم سوف يأخذون مكانهم المطيع في مجتمع مطيع ويتطلعون ليصبحوا ترساً «ناجحاً» في عجلة السلطة ويتركوا للعجلة أن تدور بهم كما تريد من دون أن يلقوا نظرة نقدية فاحصة على ما يفعلونه. أنا قلق من أن الطلاب لن يصبحوا ناقدين لمبدأ الدولة الرسمي الذي يروِّجه لهم البيت الأبيض ووسائل الإعلام والكتب المدرسية والمدرسون والوعَّاظ».

الفصل الأول

المبدعون في أوقات الحرب

«إن نقد الحكومة هو أعظم عمل وطني»

هوارد زن



هوارد زِنْ (۱۹۲۲ ـ ۲۰۱۰)

عندما أفكر في علاقة المبدعين والمجتمع ـ وبالنسبة إلي فإن السؤال هو دائماً ماذا يمكن أن تكون تلك العلاقة بدلاً من ماهية تلك العلاقة ـ أفكر في «السمو المتعالي»؟[1]، وهي بالمناسبة فكرة فلسفية لا أستخدمها مطلقاً أمام الجمهور. ولكنها الكلمة الوحيدة التي يمكن أن أفكر فيها لشرح ما أعتقده عن دور المبدعين. وعندما أقول «السمو المتعالي»، أقصد أن الفنان يتسامى على الفوري. ويتجاوز «هنا» و«الآن»، ويتسامى على جنون العالم، ويتعالى على الحرب والإرهاب.

المبدع الحقيقي يفكّر ويمثّل ويعزف الموسيقى ويكتب خارج الإطار الذي خلقه وحدده المجتمع. المبدع قد لا يفعل أكثر من أن يمنحنا الجمال والضحك والعاطفة والمفاجأة والدراما. لا أقصد التقليل من قيمة هذه النشاطات عندما أقول إن المبدع قد لا يفعل أكثر من هذه الأمور. لا يجب على المبدع أن يعتذر، لأن تقديم المبدع لتلك النشاطات يعني أن المبدع يخبرنا بما يجب أن يكون عليه العالم حتى لو لم يكن الوضع كذلك الآن.

الفنان المبدع يبعدنا عن لحظات الرعب التي نعيشها كل يوم ـ وفي بعض الأيام أكثر من أخرى ـ عندما يخبرنا ما هو ممكن للعالم أن

---

(١) السمو المتعالي هي فكرة فلسفية قال بها الفيلسوف الأمريكي رالف والدو إمرسون (١٨٠٣ ـ ١٨٨٢) وتعني: «أن الحقيقة الكاملة يمكن الوصول إليها بالعقل أو بالحدس عبر الطبيعة». (المترجم).

يكون عليه. ولكن الفنان المبدع يستطيع ويجب أن يفعل أكثر. إضافة إلى إنتاج أعمال فنية، فإن المبدع هو أيضاً مواطن وإنسان. والطريقة التي يصنفنا بها المجتمع ترعبني جداً. أنا مؤرخ، لا أريد أن أكون مجرد مؤرخ، ولكن المجتمع يضع كلّاً منّا في فرع من فروع المعرفة. نعم، إنه يوزعنا إلى تخصصات: أنت مؤرخ، وأنت رجل أعمال، وأنت مهندس. أنت كذا أو كذا، وأول شيء يسألك عنه شخصٌ ما في حفلة هو: «ماذا تعمل؟» وهذا يعني «كيف تم تصنيفك»؟

المشكلة هنا هي أن الناس يصبحون على اعتقاد أن تصنيفهم هذا هو كل شيء يستطيعون القيام به. أي إنهم متخصصون في شيء محدّد. أنتم تسمعون كلمة «مهنية»[٢] تستعمل الآن كثيراً. الناس يقولون: «يجب أن تكون مهنياً». وكلما سمعت هذه الكلمة أشعر برعب من نوعٍ ما لأن هذا التصنيف يصنع حدوداً تجبر البشر أن يعملوا ضمن نِطاق مهنهم فحسب.

أنا عانيت من هذا كمؤرخ. خلال حرب فيتنام، كان هناك اجتماعات ومؤتمرات للمؤرخين، بينما كانت الحرب تستعر جنوب شرق آسيا، وكان السؤال: «هل يجب على المؤرخين أن يأخذوا موقفاً من الحرب؟»؛ لقد كان هناك جدل كبير بهذا الخصوص. بعض المؤرخين قدّموا اقتراحاً لقرار ينص على «أننا نحن المؤرخين نعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تخرج من فيتنام»، ولكن اعترض مؤرخون آخرون على ذلك القرار قائلين: «الأمر ليس أننا نعتقد أن الولايات المتحدة يجب أو لا يجب أن تخرج من فيتنام، ولكننا مجرّد مؤرخين، وهذا القرار ليس من اختصاصنا!!».

شأن مَن إذاً؟ المؤرخ يقول إنه ليس شأني، والمحامي يقول إنه

---

(٢) مهنية: (Professionalism). (المترجم).

ليس شأني، ورجل الأعمال يقول إنه ليس شأني، والمبدع يقول إنه ليس شأني، إذاً: شأن من هذا الأمر؟! وهل يعني هذا أنكم ستتركون أمر حسم أهم القضايا في العالم إلى أولئك الذين يتولون حكم هذا البلد؟ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة؟! ألم نحصل على خبرة تاريخية كافية عن ما يحدث عندما نترك القرارات المهمة بيد الناس الذين في البيت الأبيض أو الكونغرس أو المحكمة العليا أو أولئك الذين يتحكمون في الاقتصاد؟!

هناك لحظات تاريخية محددة عندما يكون التعلم أكثر تكثيفاً من أوقات أخرى. ومنذ ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، أصبحنا نعيش في مثل تلك اللحظة. أحد الأشياء التي تعلمناها خلال حرب فيتنام كانت عن «الخبراء»[٣]. عندما بدأت الحرب تساءل الناس: لماذا ذهبنا إلى هناك؟ هؤلاء «الخبراء» كانوا يظهرون في التلفزيون ويخبروننا لماذا؟ الممثل البريطاني بيتر أوستينوف[٤]، تحدث ضد حرب فيتنام. ثم قال شخص ما «أووه، أوستينوف؟! إنه مجرد ممثل وليس خبيراً!!!». ولكن أوستينوف أوضح نقطة مهمة جداً كانت غائبة عن معظم الناس. لقد قال إن هناك «خبراء» في الأمور الصغيرة ولكن لا يوجد «خبراء» في الأمور الكبيرة!!! هناك «خبراء» في هذه الحقيقة أو تلك الحقيقة ولكن لا يوجد خبراء في الأمور «الأخلاقية». ومن المهم أن نتذكر ذلك دائماً؛ فجميعنا مهما كان العمل الذي نعمله نملك الحق لعمل قرارات وآراء أخلاقية عن العالم. ويجب أن لا تردعنا صيحات وصراخ أولئك الناس الذين يقولون: «أنت لا تعرف لأنك لست

---

(٣) خبراء: (Experts). (المترجم).

(٤) **السير بيتر أوستينوف** (Sir Peter Ustinov) (١٩٢١ ـ ٢٠٠٤): ممثل وكاتب ومخرج إنكليزي شهير في المسرح والسينما. حاز على العديد من الجوائز الفنية الرفيعة ومنها جائزتا أوسكار، ويعتبر من أهم الفنانين في القرن العشرين. (المترجم).

خبيراً، ولكن أولئك الناس الذين هناك في البيت الأبيض هم فقط الذين يعرفون». نحتاج فقط إلى معرفة قليلة بالتاريخ فحسب لندرك مدى خطورة الاعتقاد بأن الناس الذين يحكمون البلد يعرفون جيداً ما يفعلون. جان جاك روسو[٥] قال: «أرى مختلف أنواع الناس يفعلون هذا الشيء أو ذاك ولكن أين المواطنين من بيننا؟»، ولذلك كل شخص ينبغي أن يشارك لأنه لا يوجد خبراء في الأمور الكبرى. ولذلك فإن كلمة «السمو المتعالي» تخطر على بالي عندما أفكر في دور المبدعين في التعامل مع القضايا اليومية. أستخدم هذه الكلمة لأقترح أن دور ورأي المبدعين يجب أن «يسمو» ليكون بمثابة «حكمة عامة» للناس ويتجاوز المؤسسات المسيطرة وأن يخاتل ويذهب إلى «الماوراء» ليخالف ويفرّ من ما تفرضه السلطات أو ما يقوله الإعلام السائد.

بعض الناس في فنون ومهن أخرى يقولون: «نعم، دعونا نشارك، دعونا نشارك في الطريقة التي يجب أن تقال لنا الأوامر». سوف ترونهم يسلكون المسار المطلوب والمتوقع منهم عندما يطلب الرئيس منهم أن يفعلوا ذلك. وهذا ما يتكرر مع كل شخص آخر في الحقل السياسي.

كم مرة قرأت في الصحافة منذ ١١ أيلول/ سبتمبر: «يجب أن نتّحد؟» ماذا يقصدون بهذا؟ أنا أرغب أن نتّحد. ولكن نتّحد حول ماذا؟ عندما يقول الناس «يجب أن نتحد»، فإنهم يقصدون مباشرة

---

(٥) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨): فيلسوف سويسري، كان أهم كاتب في عصر التنوير. وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثّرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة والمجتمع. (المترجم).

أو ضمنياً أن «نتحد حول ما يأمرنا به الرئيس أن نفعل». مذيع الأخبار الرئيس Anchor في شبكة سي بي إس الأمريكية دان راذر، يعتبر مذيع رسمي للمؤسسة الحاكمة. **لقد ظهر راذر على التلفاز وقال: «بوش هو رئيسي، وعندما يقول لي قف في هذا المسار، أقف في هذا المسار»**. بعدما استمعت إلى عبارة راذر تأملت: هنا صحافي مهم ومؤثر نسي أول وأهم قاعدة في الصحافة: «فكر بنفسك»! لقد نسي راذر ما علمنا إياه السيد آي إف ستون[٦] الذي يعتبر أهم صحافي في القرن العشرين، أي «فكر بنفسك». ستون كان يكتب في الصحف الكبرى حتى أدرك أنه لم يكن مسموحاً له أن يقول بعض الأشياء ولذلك ترك الصحافة السائدة وأسس نشرته الخاصة «نشرة ستون الأسبوعية» (I. F. Stone's Weekly). وأصبحت مشهورة لأنها تنشر معلومات وآراء لا يمكن الحصول عليها في

---

(٦) **إزيدور فينشتاين ستون**، أو آي إف ستون (١٩٠٧ ـ ١٩٨٩): صحافي أمريكي استقصائي من أصل روسي يهودي متمرد على التقاليد الصحافية السائدة. اشتهر برسالته الإخبارية الذاتية «نشرة ستون الأسبوعية» (I. F. Stone's weekly) التي كرسها لقول رأيه الصريح في مناهضة الحروب والماكارثية والعنصرية. وبحسب استطلاع للرأي وقتها، احتلت «نشرة ستون الأسبوعية» المرتبة ١٦ في قائمة أفضل ١٠٠ صحيفة أمريكية، على الرغم من كونها جهداً فردياً متواضع الإمكانيات. أصدر ستون ١٦ كتاباً، وحصل على ١٥ من أرفع الجوائز الصحافية في أمريكا وأوروبا، ومن أهمها «جائزة الضمير الإعلامي» من جمعية المؤلفين والصحافيين الأمريكية. امتهن تدريس الصحافة بعد تقاعده عام ١٩٧١ في جامعة بنسلفانيا التي كان قد رسب فيها في شبابه وانسحب منها من دون أن يكمل البكالوريوس. ومن أهم ما نسب إليه في ـ رأينا ـ قوله عن النزاع العربي ـ الإسرائيلي: **«بعيداً عن البروباغاندا والمشاعر العاطفية، فإن مشكلة فلسطين هي، ببساطة، نضال من شعبين مختلفين للقطاع نفسه من الأرض. بالنسبة إلي، المشكلة العربية هي أيضاً المشكلة الرقم واحد لليهود. كيفية تصرفنا حيال العرب سوف يحدد أي نوع من الناس نحن ـ إما ظالمين وعنصريين مثل أولئك الذين عانينا منهم، أو نبلاء قادرين على تجاوز التعصب القبلي والديني الذي يعم البشر»**. (مقالة «الحرب المقدسة»، **نيويورك ريفيو أوف بوكس**، ٣ آب/ أغسطس ١٩٦٧). (المترجم).

مكان آخر. لقد كان يدعى ليحاضر في الجامعات عن الصحافة، **وقال للطلاب ذات مرة: «سوف أخبركم عن أشياء كثيرة بالطبع ولكن إن كنتم تريدون أن تصبحوا صحافيين متميزين يجب أن تتذكروا فقط كلمتين سهلتين: «الحكومات تكذب»، ليس فقط الحكومة الأمريكية ولكن بصفة عامة كل الحكومات تكذب»**. قد يبدو هذا مثل بيان فوضوي ولكن الفوضويين هنا محقّون، إنهم على صواب عندما ينزعون إلى الريبة والشك بخصوص أولئك الممسكين بالسلطة الرسمية، وذلك لأن هؤلاء المسؤولين يميلون في الغالب إلى الكذب من أجل مواصلة البقاء في السلطة.

عندما قال المذيع دان راذر عبارته السالفة، فإنه خالف قَسَم أبوقراط للصحافيين الذي ينص ضمنياً على أن تفكر بنفسك. عبارة راذر، هي من ذلك النوع الذي نتوقعه من صحافي يعمل في دولة شمولية مستبدة وليس من شخص في دولة ديمقراطية.

ثم لديكم آل غور الذي قبل بهزيمته في انتخابات عام ٢٠٠٠، بلطف حتى إنه أصبح متواضعاً بدرجة لا توصف وغير معقولة لدرجة أنه عندما وقعت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، أعلن آل غور قائلا: «بوش هو قائدي الأعلى»، ولذلك فكرت: لا أعتقد أن غور قد قرأ الدستور لأن الدستور يقول إن الرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة فحسب، أي إنه ليس القائد الأعلى لجميع الدولة. سلوك غور هو مثل آخر جيد للشخص الذي يندفع ليقف ضمن المسار المطلوب أي الدخول إلى محيط وسيطرة السلطة.

إن من واجب المبدع أن يسمو ويتعالى ليفكر خارج حدود الفكر المسموح، ومن ثم يتجرأ ليقول أشياء لا يستطيع قولها الآخرون.

ولحسن الحظ طوال التاريخ كان هناك مبدعون تجرأوا لفعل

ذلك. أنا أفكر في مارك توين[٧] الروائي العظيم الذي كتب قصصاً أحبها الجميع. وعندما خاضت الولايات المتحدة حرباً ضد إسبانيا[٨] في عام ١٨٩٨، جهر توين برأيه. إسبانيا هزمت بسرعة في حرب سميت «الحرب الصغيرة الرائعة». ولكن عندما همت الولايات المتحدة بعدها بغزو الفيليبين، فإن تلك لم تكن «الحرب الصغيرة الرائعة» بل كانت حرباً طويلة وقبيحة. الفيليبيون أرادوا حكم أنفسهم من دون استعمار إسباني ولا أمريكي.

توين كان أحد الأصوات التي تحدثت ضد هذه الحرب التي كانت بطرق عديدة نذيراً مبكراً لحرب فيتنام. بحلول عام ١٩٠٦، كان قد مضى على تلك الحرب خمس سنوات قتل فيها مئات الآلاف من الفيليبيين. لن تجدوا في كتب التاريخ أي شيء عن تلك الحرب الوحشية حيث ارتكب الجيش الأمريكي مجازر بشعة. ويمكنكم إطلاق كلمة «إرهاب» عليها إذ إنه تم قتل أناس أبرياء كما يجز المنجل الأعشاب والنباتات. ستمائة رجل وامرأة وطفل قتلوا في تلك المجزرة. وأرسل الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت[٩] برقية إلى

---

(٧) **مارك توين** (١٨٣٥ ـ ١٩١٠): اسمٌ مستعارٌ لكاتبٍ وقاصٍّ ومغامرٍ أمريكيٍ اسمه الحقيقي صاموئيل لانغهورن كليمنس. يعتبر أعظم الظرفاء في الأدب الأمريكي. وأطلق عليه بعض النقاد «أبو الأدب الأمريكي». (المترجم).

(٨) **الحرب الإسبانية ـ الأمريكية**: وقعت عام ١٨٩٨، بين إسبانيا والولايات المتحدة، وكانت نتيجة للتدخل الأمريكي لمساندة الثورة الكوبية المستمرة للاستقلال عن إسبانيا. ونتج منها هجمات أمريكية على ممتلكات إسبانيا في المحيط الهادئ، ما أدى إلى مشاركة أمريكا في قمع الثورة الفيليبينية للاستقلال وفي نهاية المطاف إلى الحرب الفيليبينية ـ الأمريكية (المترجم).

(٩) **ثيودور روزفلت** (١٨٥٨ ـ ١٩١٩): كان نائب الرئيس الأمريكي الـ ٢٥، والرئيس الأمريكي الـ ٢٦ خلفاً للرئيس السابق ويليام مكينلي الذي تم اغتياله. تولى الرئاسة في الفترة من ١٩٠١ ـ ١٩٠٩. ثيودور روزفلت هو ابن عم الجد الخامس للرئيس الأمريكي اللاحق فرانكلين روزفلت. (المترجم).

الجنرال ليونارد وود الذي نفذ هذه المجزرة ضد المسلمين غير المسلحين في جنوب الفيليبين قال فيها: «أهنئك أنت والضباط والجنود الذين تحت قيادتك على هذا الإنجاز العسكري البطولي الرائع حيث حافظتم على شرف العلم الأمريكي». مارك توين شجب موقف روزفلت هذا. ثم أصبح أهم المحتجين ضد الحرب في الفيليبين. لقد قفز توين من دوره ككاتب قصة وأديب إلى قلب النزاع السياسي.

لقد تجرأ توين على قول أمور لم يكن الكثيرون في البلد يقدرون على قولها. وبالطبع على الفور تم الطعن في وطنيته؛ فور أن تتحدث خارج الحدود المرسومة من السلطة وفور قولك أشياءً تخالف ما تقوله المؤسسة والإعلام والمفكرون الكبار فإن التساؤل والطعن في وطنيتك يبرز فوراً.

توين كتب شيئاً مهماً عن الولاء في روايته **يانكي من ولاية كونتيكت في بلاط الملك آرثر**:

«إن نوع الولاء الذي أؤمن به هو الولاء لبلد الشخص وليس لمؤسسات السلطة أو أصحاب المناصب في السلطة. البلد هو الشيء الحقيقي، الشيء المهم، الشيء السرمدي، وهو الشيء الذي يجب أن نحرسه ونكنّ له الولاء. المؤسسات تعتبر ثانوية، إنها تعتبر مجرد ملابس والملابس يمكن أن تتلف وتصبح بالية، وعندها لا تكون مريحة ولا تحمي الجسم من الشتاء مثلاً ولا من المرض ولا من الموت. الولاء لقطعة من القماش كالعلم أو الهتاف من أجل قماش مرفوع أو عبادة القماش أو الموت في سبيل القماش، كل هذه تعتبر أموراً من الولاء غير العقلاني «السخيف» إنه ولاء حيواني خالص وينتمي إلى الملكية واخترعته الملكية، ولذلك دعوا الملكية تحتفظ به. أنا من ولاية كونتيكت التي ينص

دستورها على أن جميع السلطات السياسية خاضعة للشعب وجميع الحكومات الحرة تتأسس بسلطة الشعب ومن أجل منفعته، ولذلك يملك الشعب في جميع الأوقات حقاً لا يمكن إنكاره لتبديل وتغيير شكل الحكومة بالطريقة التي يراها مناسبة».

فكرة مارك توين عن الولاء تعتبر مهمة جداً لأنه في النقاش السياسي الحالي تم تحديد الحدود ورسم الخطوط. وأولئك الذين يخرجون عن هذه الحدود وينتقدون السياسة الرسمية، يطلق عليهم غير وطنيين وخونة. عندما يطلق الناس مثل هذه الاتهامات ضد المعارضين فإنهم يكونون قد نسوا معنى الولاء والوطنية. الوطنية لا تعني مساندة حكومتك، إنها تعني كما قال مارك توين، مساندة بلدك. الرائدة الفوضوية النسوية إيما غولدمان، قالت تقريباً في توقيت توين نفسه إنها أحبت بلدها وليس الحكومة.

إن نقد الحكومة هو أعظم عمل وطني. إذا اتهمك أي شخص بعدم الوطنية، يجب عليك أن تذكره بـ «إعلان الاستقلال». بالطبع، الجميع يثني على هذا الإعلان عندما يعلق على جدران الفصول الدراسية ولكن ليس عندما يقرأه الناس ويفهمونه. خلال حرب فيتنام تمت معاقبة جندي لأنه علقه أمام سريره في غرفته. «إعلان الاستقلال» يقول إن الحكومات هي كائنات مصطنعة. لقد وضعها الشعب في هذا البلد لتحقيق أهداف محددة: المساواة لجميع الناس، والحق في «الحياة والحرية وتحقيق السعادة». **ويؤكد إعلان الاستقلال أنه «عندما يصبح أي شكل حكومي مدمراً لهذه الغايات فإنه من حق الشعب تغييره أو إلغاءه وتأسيس حكومة جديدة». هذا هو المبدأ الديمقراطي. وهذه هي الفكرة الديمقراطية؛ ولذلك فهناك أوقات يصبح فيها الواجب «الوطني» هو أن تشير بأصبعك إلى الحكومة قائلاً إنها لا تفعل ما يجب أن**

تفعله لحماية حق المواطنين في «الحياة والحرية وتحقيق السعادة».

الجميع اليوم يتحدثون أننا نعيش في عالم واحد بسبب العولمة، أي إننا جزء من الكوكب نفسه. إنهم يتكلمون بتلك الطريقة، ولكن هل يعنون ما يقولون بالفعل؟ يجب أن نختبر مزاعمهم. يجب أن نذكرهم أن كلمات «إعلان الاستقلال» لا تنطبق على الناس في هذا البلد فحسب، ولكن على الناس في جميع أنحاء العالم. الناس في كل مكان يملكون الحق نفسه في «الحياة والحرية وتحقيق السعادة». وعندما تكون الحكومة مُدمِّرة لذلك الحق، فعندها يكون الواجب «الوطني» أن تعارض وتنتقد وأن تفعل؛ أي ما كنا نسميه نحن الأمريكان سابقاً «بطولة» عندما نصف المعارضين والمنشقّين في البلدان الشمولية الذين يجرؤون على الكلام.

كما أودّ أن أشير إلى بعض المبدعين الآخرين الذين عارضوا الحرب، مثل الشاعر إي إي كامينغز(١٠)، الذي كتب قصيدة شهيرة بعنوان «أغني لأجل أولاف بسعادة وفخر». وهي عن ضابط أمريكي متخرّج من كلية ويست بوينت العسكرية المرموقة اسمه أولاف، ولكنه رفض خوض الحرب فتم سجنه؛ فالشاعر كامينغز وكتّاب آخرون، كانوا يعترضون على الحرب العالمية الأولى، وعلى تلك الروح العسكرية «العظيمة» التي استدعت عام ١٩١٧، أن تدخل الولايات المتحدة في تلك الحرب. الناس كانوا يساقون كقطيع في مسار الحرب، بينما كان يتمّ التلويح بالعلم. وعندما انتهت الحرب،

(١٠) **إدوارد إيستن كامينغز**: إي إي كامينغز (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢): شاعر ورسام وكاتب ومؤلف ومسرحي أمريكي. كتب ما يقرب من ٢٩٠٠ قصيدة وكتابين في السيرة الذاتية، وأربع مسرحيات وعدّة مقالات، فضلاً على العديد من الرسومات واللوحات. يعتبر صوتاً بارزاً من شعراء القرن العشرين. صدر له ١٨ كتاباً وحصل على ١٢ جائزة أدبية. (المترجم).

تأمل الناس عدد الموتى في أوروبا البالغ ١٠ ملايين شخص وتساءلوا: «ماذا كان الهدف من وراء كل ذلك؟». وبعد الفترة الأولية للتلويح بالعلم والنفخ بحماس بالبوق، بدأ الناس يفكرون مرة أخرى، وينظرون إلى الأشياء الفظيعة التي فعلوها؛ في الحرب، تُفعل أشياء فظيعة في طرف وفي المقابل تُفعل أشياء فظيعة أخرى في الطرف الآخر ثم بعد فترة يأتي التفكير: «ماذا فعلنا؟ ماذا أنجزنا؟». وهذا ما حدث بالضبط بعد الحرب العالمية الأولى.

تجربة الحرب العالمية الأولى نتج منها كتابات مهمة لجون دوس باسوس[(١١)]، فورد مادوكس فورد[(١٢)]، وإرنست هيمنغواي[(١٣)]، وإلى

---

(١١) **جون دوس باسوس** (١٨٩٦ ـ ١٩٧٠): روائي ورسام أمريكي. أصدر ٣٤ كتاباً وأكثر من ٤٠٠ عمل فني. في عام ١٩٢٨، قضى دوس باسوس عدة أشهر في روسيا لدراسة نظامها الاشتراكي. كما كان المشارك الرئيس في المؤتمر الأول للكتّاب الأمريكيين في نيسان/أبريل ١٩٣٥، برعاية اتحاد الكتّاب الأمريكان ذوي الميول الشيوعية في ذلك الوقت. ولكنه تخلّى عن الفكر اليساري في نهاية المطاف بسبب ما عرفه عن استبداد ستالين. عمله الرئيس المحتفى به هو الثلاثية الروائية **«يو إس أيه»** (*USA*). استخدم أساليب فنية تجريبية في هذه الثلاثية تتضمن قصاصات من الصحف، سيرة ذاتية، وواقعية خيالية لرسم مشاهد واسعة من الثقافة الأمريكية خلال العقود الأولى من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن كل جزء من الرواية متكامل، فقد تم تصميم الثلاثية لتقرأ ككل. تأملات دوس باسوس السياسية والاجتماعية في الرواية متشائمة للغاية بشأن الاتجاه السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة، وعن العدد القليل من الشخصيات التي نجحت في التمسك بالمثل العليا خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

(١٢) **فورد مادوكس فورد** (١٨٧٣ ـ ١٩٣٩): روائي وشاعر وناقد وصحافي إنكليزي. شارك في الحرب العالمية الأولى وخرج منها مناهضاً لفكرة الحروب. أصدر ٥٩ عملاً أدبياً. (المترجم).

(١٣) **إرنست ميلر هيمنغواي** (١٨٩٩ ـ ١٩٦١): كاتب أمريكي يعدّ من أهم الروائيين وكتاب القصة الأمريكيين في التاريخ. غلبت عليه النظرة السوداوية للعالم في البداية، إلا أنه عاد ليجدد أفكاره فعمل على تمجيد القوة النفسية لعقل الإنسان في رواياته، غالباً ما تصوِّر أعماله هذه القوة وهي تتحدى القوى الطبيعية الأخرى في =

تلك الرواية العظيمة المناهضة للحرب **جوني حصل على مسدسه**(١٤) للمؤلف دالتون ترامبو، وأوصي الجميع بقراءة هذا الكتاب ويمكن قراءته في ليلة واحدة. ومن ثم لن تستطيعوا نسيانه.

من المهم التذكر أن الحروب تبدو جيدة للعديد من الناس في البداية لأن شيئاً فظيعاً قد حدث ولذلك يعتقد الناس أن شيئاً ينبغي فعله كردّ فعل أو انتقام. ولكن التفكير في العواقب والتساؤل عن الجدوى لا يبدأ إلا لاحقاً.

▪ صراع ثنائي وفي جو من العزلة والانطوائية. شارك في الحرب العالمية الأولى والثانية، وأثرت الحرب في كتاباته. حصل على جائزة بوليتزر للرواية عام ١٩٥٣، وعلى جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٤. أصيب باكتئاب حادّ. وانتقل في آخر حياته للعيش في منزل بكوبا. حيث بدأ يعاني اضطرابات عقلية. حاول الانتحار في ربيع عام ١٩٦١، وتلقى العلاج بالصدمات الكهربائية. وبعد حوالى ثلاثة أسابيع من إكماله الثانية والستين من العمر، وضع حداً لحياته بإطلاق الرصاص على رأسه من بندقيته. حمّل هيمنغواي العلاجَ بالصدمات الكهربائية مسؤولية تدميره نفسياً بسبب فقدانه للكثير من ذكرياته. (المترجم).

(١٤) **جوني حصل على مسدسه**: رواية مناهضة للحرب صدرت عام ١٩٣٨، للروائي الأمريكي دالتون ترامبو (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦)، وفازت بالجائزة الوطنية للكتاب وجائزة الكتاب الأكثر أصالة. تسرد الرواية قصة جو بونهام، وهو جندي شاب يخدم في الحرب العالمية الأولى، حيث يستيقظ في سرير في المستشفى بعد تأثره بانفجار قذيفة متفجرة. ويدرك بونهام تدريجياً أنه فقد ذراعيه وساقيه، وجميع وجهه (بما في ذلك عينيه وأذنيه وأسنانه ولسانه)، ولكن عقله لا يزال يعمل ويستطيع التفكير... ويبقى سجيناً في ما بقي من جسده. يفكر جو في الانتحار عن طريق الاختناق، ولكنه يكتشف وجود قصبة هوائية تم زرعها له ولا يمكنه السيطرة عليها. ثم يتمنى جو الموت، ولكنه يقرر لاحقاً أنه يرغب في أن يوضع في صندوق زجاجي ويقوم بجولة في أنحاء البلاد من أجل توعية الناس الآخرين بفظائع الحرب الحقيقية. وبعد أن يتمكن بنجاح بالتواصل مع الأطباء بواسطة ضرب رأسه على وسادته كما إشارة شيفرة المورس، يدرك أنه لن يحصل على أي من رغبتيه، ما يعني ضمنياً أنه سوف يعيش بقية حياته في تلك الحالة. وبينما يتجول عقل جو بين الواقع والفانتازيا، يتذكر حياته القديمة مع عائلته وصديقته، ويفكر بما يروج عن فوائد الحرب. وأخيراً يصنع علاقة متينة نوعاً ما، مع ممرضة شابة تشعر بمحنته. (المترجم).

ولكن تذكروا أن الحرب العالمية الثانية كانت تسمى بـ «الحرب الجيدة». ولكنني لم أدرك الحقيقة إلا عندما شاركت بنفسي في الحرب العالمية الثانية وأدركت أنه لا توجد حرب جيدة أو حرب سيئة. كانت تدرس لديّ طالبة كتبت ذات مرة في بحث «ربما كانت الحروب مثل النبيذ. هناك سنوات جيدة وسنوات سيئة، ولكن الحرب ليست مثل النبيذ، الحرب مثل السيانيد. قطرة واحدة تكفي لتموت».

الكاتب المسرحي العظيم يوجين أونيل(١٥)، كتب ما يلي لابنه بعد ٦ شهور من بيرل هاربر عندما كانت تتم تعبئة البلد نحو الحرب:

«ما يحرق عقلي دائما مثل الأسيد هو أن المجزرة الحمقاء للحرب العالمية الأولى لم يتعلم منها هؤلاء الرجال أي شيء مطلقاً، خاصة لأنهم جلسوا فيها بكسل وبلادة على أكوام من الأجسام الميتة ثم ناموا بلا مبالاة ليرهنوا مستقبلهم وحتفهم بيد وزارة الخارجية التي تدرب موظفيها على التآمر وجميع الألعاب القذرة والخيانة من أجل مصلحة الطبقات الحاكمة الرأسمالية الجشعة الذين كانوا أغبياء لدرجة عدم التنبه إلى أن جشعهم يدمر نفسه ليصبحوا تحت سيطرة أحط نوع من السياسيين والبيروقراطيين».

حسناً أنا لا أستخدم في العادة مثل هذه العبارات القوية شخصياً لكنني مستعدّ لاقتباسها عندما يقولها شخص آخر.

عندما أتحدث عن العمل أو التحرك خارج الحدود المرسومة

---

(١٥) **يوجين أونيل** (١٨٨٨ ـ ١٩٥٣): كاتب مسرحي أمريكي مرموق. ألف ٥٢ مسرحية، حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة ١٩٣٦. امتازت مسرحياته بعناوينها الشاعرية، ويعتبر بين أول من أدخل التقنيات الواقعية على الدراما الأمريكية المرتبطة في وقت سابق مع الكاتب المسرحي الروسي أنطون تشيخوف، والكاتب المسرحي النرويجي هنريك إبسن، والكاتب المسرحي السويدي أغسطس ستريندبرغ. وكان أول من أدخل العامية في المسرح الأمريكي. (المترجم).

لنا، فأنا أفكر في سلطتنا ومصلحتنا الوطنية أي فكرة أننا نحن القوة العظمى في العالم وأننا نستحق أن نكون كذلك لأننا الأفضل، ولأننا نملك أفضل ديمقراطية وحرية. إنه ليس من الغرور فحسب أن نفكر أن أشياء فظيعة ترتكب ضدنا لأننا الأفضل، ولكنه أيضاً علامة على فقدان التاريخ. يجب أن نتواضع كثيراً إلى مستوى الدول الأخرى في العالم، يجب أن نتواضع كثيراً ونعترف أن الولايات المتحدة تصرفت في العالم بطريقة الدول الإمبريالية العظمى نفسها. هذا ليس عجيباً أو مدهشاً.

يجب أن نكون صريحين بخصوص بلدنا، إذا كنا نريد أن نحقق منجزات، إذا كان هناك أي شيء ينبغي للمبدع تحقيقه ـ إذا كان هناك أي شيء ينبغي للمواطن أن يكونه، فهو الأمانة. يجب أن نمتلك القدرة لفحص أنفسنا ولفحص بلدنا بأمانة ووضوح. وتماماً بطريقة فحصنا للأشياء المروّعة نفسها التي يفعلها الناس في أماكن أخرى، يجب أن نكون مستعدين لفحص الأشياء الفظيعة التي تفعلها حكومتنا هنا.

نحن نعيش في بلد قويّ وغنيّ، ونعم بلد لديه تقاليد وتراث عظيم مثل «إعلان الاستقلال» و«وثيقة الحقوق»[١٦]. ولكن أعظم تقاليدنا وتجاربنا لم تأتِ من الحكومة، بل من ما فعله شعب

(١٦) **وثيقة الحقوق**: وثيقة الحقوق في دستور الولايات المتحدة الأمريكية لعام ١٧٩١، هي وثيقة تتألف من عشرة بنود، وتتكون من أول عشرة تعديلات لدستور الولايات المتحدة الأمريكية، وتسعى إلى ضمان الحريات المدنية. ويحظر التعديل الأول مثلاً على مجلس الكونغرس تشريع أي قوانين تحدّ من الحرية؛ حيث ينص «لا يشرّع الكونغرس أي قانون يؤدّي إلى دعم ممارسة أي دين، أو تشريع أي قانون يؤدّي إلى منع ممارسة أي دين، أو تشريع أي قانون يؤدّي إلى تعطيل حرية الكلام أو النشر الصحافي أو حق الناس في إقامة تجمعات سلمية أو إرسالهم عرائض إلى الحكومة تطالبها برفع الظلم». (المترجم).

الولايات المتحدة عندما وقف بشدة ضد العديد من أنواع الظلم مثل العبودية. **كما جاء هذا التراث العظيم نتيجة قيامِ العمال بتغيير ظروف عملهم لأن الحكومة لم تفعل أي شيء. حسناً، دعوني أصحح: الحكومة ربما فعلت شيئاً مثل إرسال قوات الحرس الوطني والشرطة لقمع وقتل هؤلاء العمال!!**

يجب أن نفكر بخصوص نوع البلد الذي نريد أن نعيش فيه بهذا العالم وإذا كان مهماً لنا أن نكون قوة عظمى. وبماذا يجب أن نفتخر؟ أننا الأقوى؟ أننا الأغنى؟ أننا نمتلك أكبر عدد من الأسلحة النووية؟ أننا نمتلك أكبر عدد من التلفزيونات والسيارات؟ هل هذه هي ـ حقاً ـ الأشياء التي يجب أن نفتخر بها؟ هل هذه بالفعل قوة؟ أم شيء آخر؟

أحد المبدعين الذي اعتبر عمله يمثل نوعاً من «السمو المتعالي» هو جوزيف هيلر مؤلف رواية **كاتش ـ ٢٢**[١٧]. إذا كان،

---

(١٧) رواية **كاتش ـ ٢٢**: هي رواية تاريخية سياسية ساخرة، للكاتب الأمريكي جوزيف هيلر (١٩٢٣ ـ ١٩٩٩). قال إنه بدأ بكتابتها في عام ١٩٥٣، ونشرت لأول مرة كرواية في عام ١٩٦١. تقع أحداثها خلال الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٣، وغالباً ما يُستشهد بها باعتبارها واحدة من الأعمال الأدبية العظيمة في القرن العشرين. ويمكن ترجمة عنوانها ليصبح «**المأزق ـ ٢٢**» أو «**الشَرَكْ ـ ٢٢**»؛ ويعني بحسب الرواية وقوع حالة متناقضة ذات بديلين غير مرغوب فيهما على نحو متساوٍ لأنهما غير منطقيين. ويعود أصل التسمية إلى قانون عسكري بيروقراطي بهذا الاسم ورد في هذه الرواية الشهيرة التي تروي قصة الكابتن جون يوساريان، وهو قاذف قنابل في طائرة بي ٥٢ في سلاح الجو في الولايات المتحدة، وعدد من الشخصيات الأخرى. شعر يوساريان بالقرف من عمله كقاذف قنابل لأنه قد يقتل مدنيين، ولذلك قرر طلب إعفائه من مهمته من طبيب السرب. وكان القانون رقم ٢٢ يقول إنه لا يعفى قاذف القنابل إلا إذا ثبت جنونه. وهكذا رتب يوساريان مع صديقه الطيار ليشهد أنه بالفعل مجنون وطلب من الطبيب أن يعفيه بحسب شهادة الطيار واعترافه شخصياً. وعندما سأله الطبيب عن سبب طلبه الإعفاء أجاب بأنه قد يقتل أبرياء عبر قذف القنابل. وهنا فكر الطبيب ثم رد عليه: أنت بالفعل مجنون بحسب شهادة الطيار واعترافك ولكن السبب الذي شرحته لطلب الإعفاء منطقي ويدل على أن عقلك سليم، ولذلك نحن أمام **مأزق القانون ٢٢**، أي **كاتش ـ ٢٢** ولن أعفيك! (المترجم).

بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة شخص ما قد كتب رواية عن غموض الحرب والفظائع التي ارتكبها الرجال الذين نفترض أنهم طيبون، إذا كتب شخص مقترحاً أن «الجيل الأعظم» بحسب تعبير المذيع توم بروكو، لم يكن بالضرورة هو الأعظم؛ وأن النزاع كان أكثر تعقيداً مما نظن، لأن الحرب تفسد جميع الرجال الطيبين الذين يشاركون فيها وبسرعة فائقة يتحولون إلى رجال أشرار - فإن مثل هذا الكتاب سيجد صعوبة بالغة في النشر. لقد كان هناك نوع من «الوهج» يحيط بتلك الحرب. ولكن هيلر استطاع أن يكتب رواية **كاتش - ٢٢**. المبدعون يستطيعون المخاتلة عبر استعمال الخداع والمكر. ويستطيعون أن يشيروا إلى أمور خارج «حدود» التفكير التقليدي لأنك تستطيع تمريرها في العمل الروائي الخيالي. الناس يقولون: «أوووه حسناً إنها مجرد رواية خيالية»، **ولكن تذكروا جيداً ما قاله بابلو بيكاسو: «الفن هو كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة». الفن يبتعد عن الواقع ويخترع شيئاً قد يكون في النهاية أكثر دقة عن العالم مما تصفه أو تظهره صورة.**

جوزيف هيلر كان أحد هؤلاء الكتاب الذين يستطيعون استخدام الخيال لقول أشياء لا يمكن قولها في مقالة مثلاً. يوساريان كان المدفعجي الجوي المجنون الذي استعمله هيلر كبطل للرواية. إنه مجنون لأنه لا يريد أن يطير في مهمات قصف إضافية. لقد مَلَّ من الحرب والقتل، وإذا قذف قنابل مجدداً فسيفقد عقله.

وفي جزء آخر من الرواية، هناك شخصية أخرى في الكتاب «ناتالي» التي تعمل في بيت دعارة إيطالي وتتكلم مع عجوز إيطالي. إنها محتارة ومرتبكة لأن الرجل العجوز يقول إن أمريكا ستخسر لأنها قوية وإيطاليا ستنجو لأنها ضعيفة جداً. الرجل الإيطالي العجوز لم يكن يتكلم عن خسارة أو ربح الحرب، لقد

كان يتكلم عن النظرة التاريخية في المدى الطويل. وهذا يجعلك تفكر مجدداً عن تعريف ما نسميه بـ «قوة» و«ضعف». الأقوياء، الذين يبسطون قوتهم على كل ركن في العالم يصبحون أكثر وأكثر ضعفاً، ونتيجة لهذا يصبحون في نهاية الأمر ضعفاء. الرجل العجوز وناتالي يتبادلان حديثاً مثيراً عن «الوطنية»:

ناتالي: ليس من السخف المخاطرة بحياتك من أجل بلدك!

الرجل العجوز: أوووه، أليس سخفاً؟! ما معنى «بلدك»؟ البلد هو قطعة من الأرض محاطة من كل الاتجاهات بحدود هي في الغالب غير طبيعية، الإنكليز يموتون من أجل إنكلترا، الأمريكان يموتون من أجل أمريكا، والألمان يموتون من أجل ألمانيا، والروس يموتون من أجل روسيا. هناك ٥٠ أو ٦٠ دولة تحارب في هذه الحرب، ومن دون شك كل هذه البلدان لا تستحق الموت من أجلها!

هيلر أيضاً كتب فقرة قوية في رواية **كاتش ـ ٢٢**، عن تأثير الحرب على المدنيين. عندما تريد مجموعة من الجنود الخروج في طلعة جوية للقصف، يشرح لهم الجنرال بيكم قائلاً: «ستقصفون قرية صغيرة للغاية وغير محصنة، ويجب أن تحولوها إلى حطام». هيلر كان يعمل في القصف الجوي في الطيران الحربي وكان يفهم طبيعة القصف وكيف أنه دائماً يتم التظاهر بقصف أهداف عسكرية لكي يصدِّقه الآخرون، ولكن من طبيعة القصف الجوي أنه لا يمكنك قصف الأهداف العسكرية «فقط»!

كورت فونيغت[١٨]، كتب أيضاً رواية تقع أحداثها خلال

---

(١٨) **كورت فونيغت** (١٩٢٢ ـ ٢٠٠٧): كاتب أمريكي من أصل ألماني مشهور برواياته وقصصه القصيرة وميوله اليسارية. التحق بالجيش الأمريكي عام ١٩٤٣، وقاتل في الحرب العالمية الثانية. قال عام ٢٠٠٥، في حوار ردا على سؤال عن رأيه في =

الحرب العالمية الثانية بعنوان **المسلخ رقم خمسة**(١٩) لقد كتب عن القصف البريطاني والأمريكي الوحشي على مدينة دريسدن الألمانية حيث قتل ربما أكثر من ١٠٠ ألف مدني. الكتابة عن هذه المذبحة وشجبها في كتاب فكري غير روائي Non-Fiction كان سيكون صعباً للغاية، ولكن فونيغت استطاع أن يكشف الفظائع المرعبة التي ارتكبت في دريسدن من خلال الرواية.

كما كتب لانغستون هيوز، الشاعر الأمريكي الأسود العظيم، قصيدة رائعة يتغزل فيها بكولومبيا. وكولومبيا هنا تعني الولايات المتحدة:

كولومبيا،

يا فتاتي العزيزة

أنت حقاً لم تكوني عذراء لفترة طويلة

■ الإرهاب العالمي الحديث؟ «أنا أعتبر من يفجِّر نفسه شجاع جداً». وعند الضغط عليه للمزيد أضاف: «الانتحاريون يموتون من أجل تحقيق احترام الذات. من الفظيع حرمان شخص ما من احترامه لذاته. إنه مثل اعتبار أن ثقافتك لا شيء، وأصلك العرقي لا شيء، وأنت لا شيء... وأعتقد أنه من النبل والشرف، أن يموت شخص في سبيل ما يؤمن به». أشهر رواياته **المسلخ رقم خمسة**، التي تعتبر مزيجاً من الكوميديا السوداء والخيال العلمي، وتقوم فكرتها على مناهضة الحرب لأنها تؤدي حتماً إلى قتل المدنيين حيث صوِّر فيها قصف الحلفاء الوحشي لمدينة دريسدن الألمانية في الحرب العالمية الثانية حيث قدرت الخسائر البشرية آنذاك فيها بأكثر من ١٠٠ ألف مدني. (المترجم).

(١٩) **المسلخ رقم خمسة** (Slaughterhouse-Five)، أو رقصة واجبة مع الموت، أو الحملة الصليبية الطفولية. وهي رواية ساخرة لـ كورت فونيغت حول الحرب العالمية الثانية ورحلات عبر الزمن لجندي يدعى بيلي بيلغرم. صدرت عام ١٩٦٩ في ١٦٨ صفحة. وحصلت على المرتبة ١٨ في قائمة «دار مودرن لايبراري للنشر» لأعظم روايات القرن العشرين باللغة الإنكليزية، وتعتبر أشهر عمل لـ فونيغت والأكثر نفوذاً وشعبية له. (المترجم).

ومن المثير للسخرية الحفاظ على تلك الذريعة.
أنت تشاركين بشكل رهيب في مهمات عالمية
والجميع يعرف ذلك
لقد نمت مع جميع القوى الكبرى
بالزيّ العسكريّ
وتمتعت بحياة حلوة
باستعباد أصحاب البشرة البنية
متأزرة برداء، وبسراويل قطنية.
وعندما قاوموك،
كنت تصيحين «اغتصاب».

* * * *

ولكونك أصبحت واحدة من أكبر مصاصي الدماء في العالم،
لماذا لا تجرؤين على الاعتراف
مثل اليابان، وإنكلترا، وفرنسا،
وجميع المهووسين الآخرين بالسلطة،
الذين خلعوا من وقت طويل،
أقنعة البراءة معترفين،
وجلسوا بصراحة على سرير من القنابل؟

خلال حرب فيتنام، تكلم المبدعون بطرق مختلفة ضد تلك الحرب. الشاعر الكبير روبرت لويل، دعي إلى البيت الأبيض ولكنه

رفض الدعوة، والكاتب المسرحي الشهير آرثر ميلر[٢٠] رفض دعوة أخرى.

المغنية إرثا ماي كيت[٢١] تلقت دعوة إلى البيت الأبيض لمناسبة اجتماعية في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٨. هنا مغنية لم يكن من المفترض أن تكون مهتمة بتلك الحرب ولكن خلال الحفلة تحدثت بقوة ضد الحرب وقالت لزوجة الرئيس ليدي بيرد جونسون: «أنتم ترسلون أفضل شباب بلدنا ليموتوا أو تبتر أطرافهم ويشوهوا». لقد كانت صدمة هائلة للبيت الأبيض لأن الفنان ـ في نظرهم ـ لا ينبغي أن يهتم مطلقا بمثل هذه الأشياء!

ولكن المبدعين كانوا يفعلون أشياء كثيرة خلال تلك الفترة ليثبتوا أنهم مواطنون ويفكرون خارج الحدود المرسومة للمجتمع.

---

(٢٠) **آرثر ميلر** (١٩١٥ ـ ٢٠٠٥): كاتب وروائي ومسرحي أمريكي. كان أحد أهم رموز الأدب والسينما الأمريكية لمدة ٦١ عاماً. يعتبر أهم كاتب مسرحي أمريكي في القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، حيث أصدر أكثر من ١٠٠ كتاب منها ٥٤ مسرحية و٦ روايات و٦ سناريوهات أفلام وغيرها من الكتب غير الروائية في السيرة والأدب. حصل على عدد هائل من الجوائز الأدبية والفنية الرفيعة وكان من كبار المدافعين عن الحرية الفكرية مندّداً بكل أشكال القمع وكان من المنادين بفكرة «مسرح في متناول الجمهور». تعتبر مسرحيته **وفاة بائع متجول** نموذجاً كلاسيكياً لدراما القرن العشرين، وتدرّس تلك المسرحية في المدارس بمختلف أنحاء العالم، وتتناول في طياتها نظرة ناقدة للحلم الأمريكي. تزوج الممثلة الشهير مارلين مونرو وطلّقها. تميزت كتاباته المسرحية بطروحات حادة في تناولها إشكاليات الإنسان المعاصر وبشكل خاص الإنسان الأمريكي. ومن أهم مسرحياته: **المحنة**، **نظرة من الجسر**، **وكلهم أبنائي**، والتي حصلت عام ١٩٤٧ على جائزة توني لأفضل مسرحية.

(٢١) **إرثا ماي كيت** (١٩٢٧ ـ ٢٠٠٨): مغنية وممثلة أفرو ـ أمريكية مرموقة وصفها الممثل والمخرج الأمريكي الأبيض الشهير جورج أورسن ويلز بأنها «المرأة الأكثر إثارة في العالم». مثلت في أكثر من ٣٠ فيلماً. وحصلت على العديد من الجوائز الكبرى كمغنية وممثلة.

لقد أظهروا أنهم يتسامون فوق الفكر والمنطق المفروض عليهم. لقد قام فنان يدعى سيمور شواست، بعمل بوستر تم تقليده في كل مكان. لقد كان بوستراً بسيطاً يقول:

«الحرب جيدة للأعمال، استثمر ابنك فيها».

. «War is Good for Business-Invest Your Son»

وتم تأليف موسيقى رائعة وتم عزفها في تلك الفترة بواسطة موسيقيين أصرّوا على أن يتم اعتبارهم أكثر من مجرد موسيقيين، بل مواطنون متأثرون بما يجري حولهم من أمور، و«يجب» عليهم بالتالي أن يقولوا شيئاً ما. بوب ديلان كتب أغنيته الشهيرة «أسياد الحرب»:

تعالوا يا أسياد الحرب

أنتم يا من صنعتم كل الأسلحة

أنتم يا من صنعتم طائرات الموت

أنتم يا من صنعتم القنابل الكبيرة

أنتم يا من تختبئون خلف الجدران

أنتم يا من تختبئون خلف الطاولات

أريدكم فقط أن تعرفوا أنني أستطيع أن أرى وجوهكم خلف الأقنعة

أنتم يا من لم تفعلوا شيئاً مفيداً مطلقاً

ولكن تبنون لتدمِّروا

أنتم تلعبون بعالمنا كأنه لعبة صغيرة

أنتم تضعون مسدساً في يدي

ثم تختفون عني

ثم تستديرون وتهربون بعيداً

عندما تنطلق الرصاصات السريعة

* * * *

مثل يهوذا الخائن العجوز

أنتم تكذبون وتخدعون

بأن الحرب يمكن كسبها

وتريدونني أن أصدِّقكم

ولكنني أرى من خلال أعينكم

وأرى من خلال عقولكم

كما أرى من خلال الماء الصافي

الذي أشاهده في النهر

* * * *

أنتم تُثَبِّتون الزناد

ليطلق النار غيركم

ثم تجلسون وتشاهدون

أرقام الموتى تتزايد

أنتم تختبئون في قصوركم

بينما دماء الشباب

تنزف من أجسادهم

وتدفن في الطين

* * * *

لقد تخلّصتم من أسوأ خوف

يجب تجاوزه

الخوف من إنجاب الأطفال في هذا العالم

وتهديد طفلي الذي لم يولد ولم يُسَمَّ

أنتم لا تستحقون الدماء

التي تجري في عروقكم

* * * *

دعوني أسألكم سؤالاً واحداً

هل أموالكم نظيفة؟

هل يمكنها أن تشتري لكم المغفرة؟

هل تعتقدون أنها تستطيع ذلك؟

أعتقد أنكم ستعلمون

عندما يقترب الموت منكم

أن كل الأموال التي جمعتموها

لن تعيد مطلقاً أرواحكم

القصد من التفكير بطريقة السمو المتعالي هو أن تفكر: ما هي المسائل التي لا تفكر بها السلطات؟ أقول كل هذا الكلام في وقت يعتبر من غير المناسب أن أتحدث ضد قصف أفغانستان أو

العراق. الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن مجموعة متعصبة قتلت ٣ آلاف شخص في نيويورك وواشنطن. ومن ثم قفزت الحكومة إلى الاستنتاج التالي: «ولذلك، يجب أن نقصفهم». لقد تعاملنا دائماً مع العنف بالعنف، ولكن لو كنت تعرف بعض التاريخ عندما حدث ذلك، لكنت سألت: «ماذا كانت النتيجة؟».

سوف يساعد ذلك في إعادة تعريف مصطلح «الإرهاب». ما حدث في ١١ أيلول/سبتمبر، كان عملاً إرهابياً. ولكن فصله عن «تاريخ» الإرهاب سوف يُضلِّلك بصورة خطيرة، هذا العمل الإرهابي انفجر في وجوهنا لأنه كان إلى جوارنا تماماً. ولكن أعمال الإرهاب كانت تحدث في العالم منذ زمن طويل. أقول هذا ليس لكي أقلل من شأن الإرهاب الذي حدث في نيويورك وواشنطن، ولكن من أجل توسيع إدراكنا بـ «ما وراء» ذلك. وإذا لم نفعل ذلك، فلن نفهم ما حدث أو ما يجب أن نفعل حياله.

عندما نوسع السؤال ونعرّف الإرهاب بأنه قتل الناس الأبرياء لأجل هدف سياسي مفترض، فعندها سوف نستنتج أن دولاً عديدة، بما في ذلك أشخاص وجماعات تورطوا في الإرهاب. إضافة إلى إرهاب الأفراد والجماعات، هناك إرهاب الدولة. عندما ترتكب الدول الإرهاب فإنها تمتلك الكثير من الوسائل لقتل الناس أكثر من الإرهاب الذي يرتكبه أشخاص أو جماعات.

الولايات المتحدة كانت مسؤولة عن أعمال إرهاب. وعندما أقول هذا، قد يقول الناس: «أنت تحاول أن تقلل من شأن ما حدث». كلّا، أنا لا أحاول أن أقلل من ذلك مطلقاً، بل أنا أحاول أن أوسّع من معارفنا ومداركنا. الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا مسؤولتين عن موت العديد من الأبرياء في العالم. معرفة هذه الحقيقة لا تحتاج إلى دراسة عميقة في التاريخ. تأملوا فيتنام، ولاوس

وكمبوديا، حيث مات ملايين الناس لأن الولايات المتحدة كانت مهتمة بالمطاط والقصدير وبعض المعادن في منطقة ما. تأملوا أمريكا الوسطى؛ فكروا في موت ٢٠٠ ألف شخص في غواتيمالا(٢٢) بسبب حكومة قامت الولايات المتحدة بتسليحها ومساندتها.

أعلم أن هذه المعلومات مقلقة ومزعجة. الشعب الأمريكي لا يريد أن يسمع نقداً للحكومة الأمريكية بعدما أصبحنا ضحايا لعمل إرهابي. ولكن يجب أن نفكر بحذر في ما يجب عمله لإنهاء الإرهاب. يجب أن نفكر جيداً، وهل سينهي قصف واحتلال أفغانستان والعراق الإرهاب؟ وهل المزيد من الإرهاب سوف يوقف الإرهاب؟ لأن الحرب هي «إرهاب» في الحقيقة، الحرب في هذا الوقت تعني حتماً قتل الناس الأبرياء.

حتى الآن، قتلت الولايات المتحدة بالفعل عدداً من الناس في أفغانستان أكثر من ضحايا ١١ أيلول/ سبتمبر. وربما مات مئات الآلاف من العراقيين بسبب الحرب الحالية والسابقة على العراق والعقوبات التي فرضناها وطبقناها بالقوة. الجدل ليس قياس عدد القتلى هنا وهناك: هم قتلوا أكثر منا أو نحن قتلنا أكثر منهم، بل القصد هو أن نرى هذه الأمور كفظائع وأن نفكر ماذا نفعل حيالها؟ لا

---

(٢٢) **غواتيمالا**، أو جمهورية غواتيمالا: هي دولة تقع في أمريكا الوسطى مساحتها ١٠٨,٨٩٠ كيلومتراً مربعاً، بتعداد سكان قدره يزيد على ١٣ مليون نسمة. انتخب عام ١٩٦٦، خوليو سيزار منديز مونتينغرو، رئيساً لـ غواتيمالا تحت شعار «الانفتاح الديمقراطي». أرسلت الولايات المتحدة مستشارين عسكريين من قواتها الخاصة (القبعات الخضر) إلى غواتيمالا لتدريب قواتها والمساعدة في تحويل جيشها إلى قوة حديثة لمكافحة تمرُّد يساري، ما جعلها في نهاية المطاف الأكثر تطوراً في أمريكا الوسطى. وفي عام ١٩٩٩ اعترف الرئيس الأمريكي بيل كلينتون أن الولايات المتحدة أخطأت بدعمها القوات المسلحة الغواتيمالية، التي ساهمت في القتل الوحشي لآلاف المدنيين. (المترجم).

يجب أن ترد على عمل إرهابي بشن حرب لأنك بذلك سوف تستعمل الأعمال نفسها التي يقوم بها الإرهابيون. بهذه الطريقة يكون التفكير هكذا: «نعم مات أناس أبرياء، إنه أمر محزن ولكنه من أجل هدف مهم إنه عبارة عن دمار مصاحب/ جانبي (Collateral Damage)، ويجب أن تقبلوا بالدمار المصاحب/ الجانبي عندما تهمّون بفعل شيء مهم». وهذا في الواقع ما يقوله الإرهابيون لتبرير إرهابهم، وهذا أيضاً ما تقوله الدول لتبرير إرهابها.

أطلب منكم أن نفكر بحذر ووضوح، لأنه إذا استمر سَوْقنا كقطيع للقيام بأعمال تجعل العالم أكثر خطورة من الآن، فسوف نندم بشدة في ما بعد لأننا سايرناهم بصمت، ولم نرفع أصواتنا كمواطنين مسؤولين لنسأل: كيف نحل هذه المسألة من الجذور؟ هل من المناسب والصحيح الرد على العنف بعنف؟ كل فرد في المجتمع يستطيع أن يفعل شيئاً، يستطيع أن يسأل أسئلة، يستطيع أن يرفع صوته.

أريد أن أختم باقتباس من قصيدة للناشط السياسي من أجل السلام دانييل بيرغان. لقد ناضل طويلاً ضد الحرب والعسكرة، لقد كتب هذه القصيدة في ذكرى صديقه ميتش سنايدر الذي كان يعمل لعدة سنوات لمساعدة المتشردين في واشنطن، دي. سي. سنايدر كان منزعجاً لأن الحكومة كانت تصنع طائرات مقاتلة، وطائرات قاذفة للقنابل، وغواصات نووية، وصواريخ، ولكنها ـ ويا للعجب ـ لم تكن تملك القليل من المال لتؤوي مواطنيها المتشردين. سنايدر أصبح مكتئباً جداً بسبب هذه الحالة حتى انتحر. بيرغان كتب قصيدة مؤثرة بعنوان «ميتشل سنايدر: ذكرى ومحبة»:

بعضهم وقف مرة واحدة وجلس

بعضهم سار ميلاً ثم هرب

بعضهم وقف مرتين ثم جلس

لقد مللنا، كما قالوا

بعضهم مشَوْا ميلين، ثم هربوا

لقد صرخوا: إنه مؤلم

بعضهم وقف وقف وقف..

اعتبروهم حمقى

اعتبروهم مخدوعين

بعضهم مشوا ومشوا ومشوا...

لقد جالوا الأرض

جالوا المياه

جالوا الهواء

لماذا أنت واقف؟

سألوا:

ولماذا تمشي؟

هل بسبب الأطفال؟

بسبب الخبز؟

لأن

السبب

هو نبض القلب

والأطفال الذين ولدوا يريدون الخبز.

الفصل الثاني

عن إيما غولدمان(*)

*«بحلول ذلك الوقت، كانت إيما غولدمان قد قضت وقتاً معتبراً في السجن. لقد تم سجنها في جزيرة بلاكويل في نيويورك لأنها تحدثت بقوة عن الأزمة الاقتصادية في عام ١٨٩٣. كان هناك أعداد كبيرة من العاطلين الذين لم يجدوا طعاماً كافياً لعائلاتهم. إيما غولدمان وقفت أمام جمع ضخم من الناس في ميدان يونيون، وقالت: «**إذا كنتم لا تجدون طعاماً كافياً لأطفالكم، داهموا المتاجر وخذوا الطعام الذي تحتاجونه**». يسمى هذا في الفكر الفوضوي بـ العمل المباشر (Direct Action). هذا ما يؤمن به الفوضويون. لا توقعوا عرائض.. ولا تناشدوا الآخرين.. ولا تزوروا نائبكم في البرلمان، بل قوموا بعمل مباشر ضد مصدر مشكلتكم».*

هوارد زن

(*) هذه نسخة منقحة من خطبة ألقيت في كلية رادكليف، كامبريدج، ولاية ماساتشوستس، في ٢٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢. (المترجم).



إيما غولدمان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٠)

لا أستطيع مطلقاً البقاء في التاريخ. ولا أستطيع مطلقاً أن أبقى في الماضي. لقد أصبحت مؤرخاً وذهبت إلى الماضي، وكان هدفي محاولة فهم وعمل شيء إيجابي حيال ما يجري في الحاضر. لم أكن أريد مطلقاً أن أكون مؤرخاً من النوع الذي يجلس في الأرشيف ولا تستطيع أن تسمع منه أي شيء مجدداً.

جهدي الذي بذلته حول الرائدة الفوضوية[1] إيما غولدمان[2]، كان له علاقة دائماً بالأشياء التي نشاهدها حالياً في العالم والأمور التي أنشط فيها ولي علاقة بها. ولكن معرفتي بها كانت مبهمة قبل الستينيات. لقد كان من المدهش ـ وها أنذا أحمل دكتوراه في

---

(١) تعرّف **الفوضوية** (Anarchism)، عموماً بأنها فلسفة سياسية يسارية متطرفة تناهض وجود سلطة حكومية لإدارة شؤون المجتمع لأنها تعتبرها ظالمة حتمياً، ولذلك تعتبرها سلطة ضارة وغير مرغوب بها ولا لزوم لها. يدعو أنصار الفوضوية، المعروفين باسم اللاسلطويين، إلى مجتمعات تقوم على أسس غير هرمية وجمعيات تطوعية لإدارة الأمور داخل المجتمع بدلاً من سلطة مؤسسية لدولة تقمع الناس بالضرورة. (المترجم).

(٢) **إيما غولدمان** (Emma Goldman) (1869-1940)، رائدة نسوية وفوضوية عرفت بنشاطها السياسي وكتاباتها وخطبها. ولدت عام ١٨٦٩ في ليتوانيا. وفي عام ١٨٨٥، هاجرت إلى الولايات المتحدة، حيث أصبحت ناشطة في الحركة الفوضوية، لتعمل مع الناشط الفوضوي ألكسندر بيركمان. اعتقلت في عام ١٨٩٣، بعد مهاجمتها الحكومة في عدد من الخطابات، وسجنت في نيويورك بتهمة التحريض على الشغب. بعد إطلاق سراحها عام ١٨٩٤، ألقت عدداً من المحاضرات في أوروبا. ومن عام ١٩٠٦ حتى عام ١٩١٧، أصدرت مجلة **الأرض الأم** *(Mother Earth)*، وهي مجلة فوضوية، تم نفيها إلى خارج الولايات المتحدة بسبب نشاطها السياسي ضد الحرب (المترجم).

التاريخ.. وماذا يمكن أن تكون شهادة أكثر من ذلك؟! ـ إنني لم أسمع عن إيما غولدمان في المحاضرات الجامعية التي أخذتها قبل حصولي على الدكتوراه، كما لم تكن أي من كتاباتها على قائمة قراءاتي التي نصح بها الأساتذة، وكنت فقط أتذكر بصورة مبهمة وغامضة فصلاً قرأته عنها في كتاب قديم وصغير **نقاد ومناضلون: قرن من المعارضة الأمريكية.**

وبعد وقت قصير من حصولي على الدكتوراه، حضرت مؤتمراً في بنسلفانيا. وأحياناً في مثل هذه المؤتمرات تقابل أشخاصاً مدهشين، وفي هذا المؤتمر قابلت ريتشارد درينون[٣]، وهو مؤرخ مرموق. أخبرني درينون أنه كتب سيرة ذاتية لـ إيما غولدمان بعنوان **ثائرة في الجنة**. ولذلك بحثت عن هذا الكتاب وقرأته، وأذهلني تماماً، كما جعلني أغضب لأنني لم أقرأ أي شيء عن إيما غولدمان في مسيرتي المهنية الطويلة. كم كانت امرأة رائعة.. هذه الفوضوية والنسوية القوية والمحبة للحياة. وبالطبع قادني هذا إلى سيرتها الذاتية التي كتبتها بنفسها بعنوان **أعيش حياتي**[٤] التي إذا كنتم لم

---

(٣) **ريتشارد درينون**، مواطن أمريكي ولد في ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٥، في مدينة بورتلاند بولاية أوريغون، ويعمل أستاذاً فخرياً للتاريخ في جامعة باكنيل. حصل على دكتوراه في التاريخ من جامعة مينيسوتا في عام ١٩٦١. وعندما كان أستاذاً في جامعة كاليفورنيا، اكتشفت الشرطة أنه الشخص التالي على قائمة القتل التي وضعها المتطرف الديني المسيحي جون هاريسون فارمر الذي كان يعتقد أن الله أمره بقتل الناس الذين يشتبه بتعاطفهم مع الفكر اليساري. شارك درينون في الاحتجاجات التي حصلت في جامعة كولومبيا عام ١٩٦٨. واشتهر برده على خطاب ألقاه نائب الرئيس الأمريكي هيوبرت هامفريه في جامعة كولومبيا حيث صاح «هذه وصمة عار»، وخرج من القاعة مع نحو ٣٠ طالباً. (المترجم).

(٤) **أعيش حياتي** (*Living My Life*)، سيرة ذاتية لـ إيما غولدمان، كتبتها بنفسها خلال وجودها في سان تروبيه، فرنسا. تقع في ٩٩٣ صفحة، ونشرت في مجلدين الأول صدر عام ١٩٣١، عن دار كنوبف، والثاني عام ١٩٣٤، عن دار غراند سيتي =

تقرأوها، يجب أن تقرأوها؛ وفي أحد الفصول الدراسية التي درّستها جعلت كتابها هذا مقرراً لفصل من ٤٠٠ طالب وطالبة. في البداية تساءلت: إنه كتاب كبير، وهل يستطيعون بالفعل أن يفهموا هذه المرأة التي عاشت في أوائل القرن العشرين ونحن في منتصف الستينيات؟

ولكن طلابي أحبوا الكتاب، ووجدوا في شخصيتها نفس ما وجدته: روح حرة، وجرأة، وامرأة تتحدّى كل السلطات، وشجاعة، وأيضاً، كما يشير عنوان كتابها، أنها تعيش حياتها كما تريد أن تعيشها، وليس كما تفرضه السلطات والأعراف. هذا ما جعلني أهتم بـ إيما غولدمان من حيث قراءة أعمالها وجعلها مقررات في صفوفي الدراسية، لقد استغرق الأمر مني حتى عام ١٩٧٥، عندما انتهت حرب فيتنام وحصلت على متسع من الوقت للكتابة عن إيما غولدمان بصورة مركّزة ومطولة. لقد كنت مهتماً طوال حياتي بالمسرح: زوجتي مثّلت وكذلك ابنتي مثّلت وابني يعمل في المسرح حتى الآن، ولكن كل هذا الاهتمام بالمسرح لم ينتج منه أي عمل مسرحي لي لأنني كنت منشغلاً تماماً بحركة الحقوق المدنية الأمريكية وحركة مناهضة حرب فيتنام. ولذلك كتبت مسرحية[٥] عن إيما غولدمان وكان يجب عليّ أن أتخذ قراراً

= للنشر. وطغى عليها خيبة أملها في الدور البلشفي في الثورة الروسية. النص يغطي بشمول، حياتها الشخصية والسياسية من مرحلة الطفولة المبكرة حتى عام ١٩٢٧، وبقيت النسخة باستمرار متوافرة في المكتبات منذ ذلك الحين، في طبعات أصلية أو مختصرة. ولكونها نشرت قبل تسع سنوات من وفاتها في عام ١٩٤٠، فإنها لا تسجل دورها في الحرب الأهلية الإسبانية. (المترجم).

(٥) مسرحية **إيما** (*Emma*)؛ هي مسرحية من مشهدين عن إيما غولدمان الفوضوية الأمريكية، كتبها المؤرخ والكاتب المسرحي هوارد زن (١٩٢٢-٢٠١٠). وقد مثلت لأول مرة في عام ١٩٧٦. (المترجم).

بخصوص أحداثها، حياتها كانت طويلة ومليئة بالأحداث وفي أي عمل فني ـ وأنا أحب أن أسمي ما أعمله فنّاً ـ هناك دائماً مشكلة عن ما يجب أن تُدخله من أحداث في العمل وما يجب أن تُخرجه. هناك الكثير من الأشياء عن حياتها، ولذلك بدأت بها كفتاة مهاجرة، مراهقة تعيش في مدينة روشيستر، ولاية نيويورك، وتعمل في مصنع.

إدراكها السياسي يبرز في عام ١٨٨٦، أي في وقت «حادثة سوق البرسيم»[٦]، وهو الإدراك الذي حدث في أنحاء البلد كافة، خلال نضال العمال من أجل تحديد ساعات العمل بثماني ساعات في اليوم. كان هناك إضراب ضد شركة الحصاد الدولية في شيكاغو، وجاءت الشرطة. كان هناك المشهد المعتاد، الشرطة ضد المضربين. ولكن الشرطة أطلقت النار على مجموعة من المضربين وقتلت واحداً منهم. في ذلك الوقت كانت شيكاغو مركزاً مهماً للنشاط الراديكالي والجماعات الفوضوية. دعا الفوضويون إلى اجتماع احتجاجي في ميدان «سوق البرسيم». لقد كان اجتماعاً سلمياً، ولكن الشرطة داهمت الاجتماع ثم فجأة انفجرت قنبلة وسط الشرطة ـ أي هجمة إرهابية ـ ولا أحد عرف من رمى القنبلة. ولكن ـ كما تعرفون ـ عندما يحدث هجوم إرهابي فإنه ليس من الضروري أن تعرف أو لا تعرف الفاعل الحقيقي، بل

---

(٦) **حادثة سوق البرسيم**: المعروفة أيضاً باسم **مجزرة سوق البرسيم** أو **شغب سوق البرسيم**، تشير إلى التفجير الذي وقع في تظاهرة عمالية يوم الثلاثاء ٤ أيار/ مايو ١٨٨٦، في ميدان سوق البرسيم في شيكاغو. بدأت التظاهرة كمسيرة لدعم العمال المضربين من أجل تحديد مدة العمل بثماني ساعات في اليوم. ألقى شخص مجهول قنبلة على الشرطة عندما كانت تفرِّق التظاهرة. أدى انفجار القنبلة وإطلاق النار الذي تلاها إلى وفاة ٧ من ضباط الشرطة و٤ من المدنيين وجرح عشرات آخرين. (المترجم).

يجب عليك أن تتعقب شخصاً ما والشرطة كان يجب أن تعثر على شخص ما. وأيضاً مكتب التحقيقات الفدرالي كان يجب عليه أن يعثر على شخصٍ ما. وبالمثل الجيش كان يجب عليه أن يعثر على شخصٍ ما، ولذلك عثروا على ثمانية من زعماء المجموعات الفوضوية في شيكاغو. لم يستطع أحد أن يربط بينهم وبين تلك القنبلة، ولكنهم بالتأكيد «فوضويون». لدينا في أمريكا «قوانين تآمرية»[7]. «القوانين التآمرية» مدهشة وعجيبة. عن طريق «القانون التآمري» تستطيع أن تربط أي شخص بأي تهمة. يجب ألّا ترتكب أي شيء لكي تصبح متّهماً في محاكمة عن تآمر سياسي، ولذلك عثروا بسرعة على هؤلاء الثمانية من زعماء المجموعات الفوضوية بتهمة التآمر من أجل القتل، وحُكم عليهم بالإعدام.

إيما غولدمان كانت تعلم بهذا. لقد مرّ الاتهام من خلال المحاكم بدرجات مختلفة. النظام القضائي الأمريكي هو نظام مدهش. عندما ترتكب أخطاء على المستوى الأدنى للتقاضي، فمن الصعب جداً تصحيح تلك الأخطاء، لأن المحاكم العليا تقيُّد نفسها بما تستطيع مراجعته؛ سوف يقولون: «حسناً المحلفون والقاضي فكروا في حقائق هذه القضية، ولذلك كل ما يجب علينا هو أن نتعامل مع النقاط القانونية ولا نستطيع أن نقفز فوق الحقائق». وعلى أية حال، فقد صادقت المحكمة العليا لولاية إيلينويز على أحكام الإعدام.

«حادثة سوق البرسيم»، أصبحت قضية دولية. لقد كانت واحدة من تلك القضايا التي تلفت انتباه الناس المهتمين بحقوق

---

(٧) **قوانين تآمرية** (Conspiracy Laws)، أي قوانين تقوم على شبهة نظرية المؤامرة من دون دليل مادي مثبت. (المترجم).

الإنسان ورفع الظلم. وفي وقتنا الحالي عاصرنا العديد من تلك القضايا: **آل روزنبرغ**[8]، **وموميا أبو جمال**[9] على سبيل المثال، اللتين أصبحتا قضايا دولية. وأيضاً كان ذلك هو حال «حادثة سوق البرسيم». **جون برناردشو أرسل برقية إلى محكمة إيلينويز العليا جاء فيها: «إذا كانت ولاية إيلينويز تودّ التخلص من ثمانية أشخاص من مواطنيها، فمن الأفضل التخلص من أعضاء محكمة إيلينويز العليا الثمانية»**! ولكن هذا البعد الدولي لم يُفِد القضية. أربعة منهم شنقوا وعندما انتشر خبر الشنق ووصل إلى إيما غولدمان أثارها إلى درجة الغضب. وقامت فوراً بمغادرة روشيستر وتركت عائلتها وبخاصة زوجها الذي ارتبطت به في زواج تقليدي مرتب من عائلتها وهي صغيرة السن. ذهبت إيما إلى نيويورك

---

(٨) **قضية آل روزنبرغ**: حوكم وأعدم الزوجان الشيوعيان اليهوديان الأمريكيان جوليوس وإيثيل روزنبرغ عام ١٩٥٣، بتهمة التجسس للسوفيات وسرقة معلومات عن القنبلة الذرية. وكانت هذه أول عملية إعدام لمدنيين بتهمة التجسس في تاريخ الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٩٥، نشرت الحكومة الأمريكية سلسلة من البرقيات السوفياتية بعد فك شفرتها، أكدت تلك البرقيات جاسوسية الزوج جوليوس، ولكنها ألقت بظلال من الشك حول مستوى تورط الزوجة إيثيل بحيث ساد اعتقاد ببراءتها فعلياً من التجسس كما قالت في التحقيق. كان ولا يزال قرار إعدام آل روزنبرغ مثيراً للجدل في التاريخ الأمريكي الحديث. (المترجم).

(٩) **موميا أبو جمال** (Mumia Abu-Jamal): (وُلد باسم ويسلي كوك) مواطن أمريكي من مواليد عام ١٩٥٤، أدين عام ١٩٨١ بتهمة قتل ضابط من شرطة فيلادلفيا اسمه فولكنر دانيال. حكم عليه بالإعدام من المحاكمة الأولى، وأصبحت قضيته مشهورة دولياً. قبل اعتقاله، كان ناشطاً سياسياً ومذيعاً لامعاً وأصبح رئيساً لجمعية فيلادلفيا للصحافيين السود. كان عضواً في حزب النمور السود (Black Panthers) حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٠. والنمور السود حركة حقوقية لسود الولايات المتحدة نشأت بعد مقتل مالكوم إكس وما أعقبه من توترات راح ضحيتها أكثر من ٣٠٠ مواطن أسود مما جعل جماعات سوداء تؤسس ما يسمى بمنظمة النمور السود للدفاع عنهم. وقد كانت المنظمة تحمل السلاح ولا تنبذ العنف ودخلت في اشتبكات عديدة مع الشرطة مما جعل الكثير يصنفها كإرهابية آنذاك. (المترجم).

وانضمت إلى مجموعة فوضوية صغيرة. وفي نيويورك قابلت ألكسندر بيركمان الذي أصبح رفيق كفاحها ومن ثم زوجها. هذه المجموعة الصغيرة من الفوضويين الذين يعيشون في مزرعة تعاونية في نيويورك بدأوا ينتجون مطبوعات ويوزعونها تماماً مثلما تفعل المجموعات اليسارية. أي شخص يمرّ عبر ميدان بارك أو ميدان هارفارد، سيقابل هؤلاء الناس. من المهم أخذ تلك المطبوعات والمنشورات منهم لأنك ستجد فيها أشياء كتبها هؤلاء الناس الراديكاليين المجانين لن تجدها في أي مكان آخر.

وعلى أية حال فقد كانت إيما غولدمان جزءاً من هذه المجموعة الصغيرة. وفي عام ١٨٩٢، وقع إضراب في مدينة هومستد في ولاية بنسلفانيا ضد مصنع كارنيغي للصلب، وقامت شركة كارنيغي بالطلب من وكالة بنكيرتون للتحريات الخاصة أن تفضَّ هذا الإضراب. لقد قام بالتعاقد مع هذه الوكالة هنري فريك، الذي كان يعرف بأنه محب وراعٍ للفن ولكنه كان أيضاً مديراً في شركة للحديد والصلب والشخصٍ الذي تعاقد مع وكالة بنكيرتون للتحري لكي تفض الإضراب. جرى إطلاق نار بالمسدسات، وتم قتل بعض المضربين، ونتيجة لهذا شعرت هذه المجموعة الفوضوية بالغضب والحماس. **لقد قرروا أن يفعلوا ما لم يسبق أن حدث في الولايات المتحدة ولكنه سبق أن حدث في أوروبا، لقد قرروا أن يثبتوا أن المتسبب في هذا العنف يمكن أن يصبح ضحية لهذا العنف. لقد قرروا قتل هنري فريك.**

لقد تجادلوا حول هذا الأمر، يمكنكم أن تتخيلوا هذه المجموعة الصغيرة التي لا تملك أي خبرة في هذه الأمور وهي تناقش طوال الليل كيفية تنفيذ هذه الخطة، كيف يمكن الحصول على مسدس؟ بيركمان تطوع للتنفيذ ولكن يجب عليهم أن يعطوه بذلة

جديدة؛ فإذا كنت تريد أن تقتل شخصاً ما، يجب أن يكون مظهرك محترماً. وهكذا يذهب مع ملابسه الجديدة ومسدسه إلى مدينة بيتسبرغ ويداهم مكتب فريك ويطلق رصاصة طائشة، إنه فوضوي، فماذا تتوقعون؟ إنه لم يتدرب على هذا الأمر. . إنه يعرف فحسب كيف يوزع المنشورات جيداً. ولذلك جرح فريك بدل أن يقتله.

قبض على بيركمان وحكم عليه بسرعة بـ ٢٢ سنة من السجن، لقد كان عشيق إيما غولدمان. وبينما كان في السجن أصبحت غولدمان شخصية مشهورة في أمريكا: كاتبة ومحاضرة وامرأة ذات شكيمة قوية. وبالمناسبة أحد أعظم الكتب عن أحوال السجن وقضية السجون كان مذكرات بيركمان **مذكرات فوضوي مسجون**(١٠). إنه كتاب مدهش. بيركمان قضى ١٤ سنة في السجن وعندما خرج منه تغيرت أشياء كثيرة. لم يعد هو وغولدمان عاشقين. ولكن أسسا على الفور مجلة فوضوية بعنوان **مذر إيرث** (*Mother Earth*) الفوضوية وكانا ينشران فيها أشياء لا يستطيع أحد غيرهما نشرها.

بحلول ذلك الوقت، تغيرت أفكارهما عن ضرورة أعمال العنف السياسي في بعض الأحيان. لقد قررا بعد تفكير عميق أن العنف هو أمر يجب تجنُّبه تماماً. ثم عملا كمنسقين ومنظمين للعمال، وإيما غولدمان تحديداً كانت منسقة لعمال الخياطة في نيويورك، وتقوم بإلقاء الخطب في جميع أنحاء أمريكا.

وبحدود عام ١٩٠٨، تعاملت إيما غولدمان مع رجل يملك

---

(١٠) **مذكرات فوضوي مسجون**، كتاب لـ ألكسندر بيركمان عن تجربته في السجن في مدينة بيتسبرغ، ولاية بنسلفانيا، من عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩٠٦. نشر للمرة الأولى في عام ١٩١٢، من قِبَل إيما غولدمان، وأصبح من الكتب الكلاسيكية في أدب السجون والسيرة الذاتية. (المترجم).

شخصية مذهلة اسمه بن ريتمان. ريتمان كان طبيباً من نوع خاص، وبالتالي، كان كل شيء من نوع خاص، وبطريقة ما أكمل دراسة الطب بعدما استطاع قراءة كتب الطب بنفسه والاستماع إلى المحاضرات، وذات مرة قام بإلقاء محاضرة بنفسه بعدما تغيَّب الأستاذ الذي كان طبيباً شهيراً.

لقد كان شخصية مغامرة وجريئة، ويلبس دائماً قبعة الكاوبوي. لقد أسس عيادة للفقراء وبخاصة للنساء الفقيرات (الحوامل) لمساعدتهن على الولادة أو الإجهاض. لقد كان مخاطراً وماكراً وشيطاناً فتن إيما غولدمان تماماً، وهي تلك المرأة المستقلة التي لا ينبغي لها أن تُؤسر من قبل أي شخص. وهذه الصفة هي أحد الأشياء المشوقة والمهمة في حياتها لأنها كانت امرأة قوية، وأصرت على استقلال النساء ـ ولكن عندما وقعت في حب ريتمان أصبحت أسيرة تماماً لتلك العلاقة العاطفية التي استمرت لـ عشر سنوات.

ريتمان كان بالفعل فوضوياً أكثر من الفوضويون، ولكنه كان شجاعاً أيضاً. لقد سافر مع غولدمان إلى سان دييغو حيث تعرّضا لهجوم وحشي عليهما من مختلف أنواع الناس الذين يعتقدون أن الفوضوية عمل شيطاني. اختُطف ريتمان وأخذ إلى الريف حيث صبوا عليه القطران ثم وضعوا الريش على جسمه وكتبوا على ظهره «اتحاد عمال العالم»(١١). لقد تأثر ريتمان كثيراً من هذه المعاملة

---

(١١) **اتحاد عمال العالم**: نقابة عمالية عالمية لعمال الصناعة تأسست عام ١٩٠٥ في شيكاغو وبلغت ذروتها في عام ١٩٢٣، عندما ادعت أن عدد أعضائها بلغ ١٠٠,٠٠٠، وأنها تستطيع حشد ومساندة ٣٠٠,٠٠٠ عامل. انخفض عدد أعضائها بشكل كبير بعد انقسام داخلي عام ١٩٢٤. تعرضت لاضطهاد حكومي عنيف حتى تلاشى وجودها وأصبح رمزياً. (المترجم).

الوحشية لدرجة أنه أحياناً عندما كان يلقي خطبة أمام جمهور ما، كان ينزل بنطاله لكي يظهر للناس ما تعرض له من تعذيب رهيب، ما أرعب غولدمان. الكثير من الأمور عن ريتمان أرعبتها، ولكنها لم تنهِ علاقتهما، ما أنهى تلك العلاقة الحميمة هو السياسة والحرب العالمية الأولى.

بحلول ذلك الوقت، كانت إيما غولدمان قد قضت وقتاً معتبراً في السجن. لقد تم سجنها في جزيرة بلاكويل في نيويورك لأنها تحدثت بقوة عن الأزمة الاقتصادية في عام ١٨٩٣. لقد كانت هناك حالة اقتصادية مروّعة في نيويورك، وفي مختلف أنحاء أمريكا في تلك السنة، وكان هناك أعداد كبيرة من العاطلين الذين لم يجدوا طعاماً كافياً لعائلاتهم. إيما غولدمان وقفت أمام جمع ضخم من الناس في ميدان يونيون، وقالت: «**إذا كنتم لا تجدون طعاماً كافياً لأطفالكم، داهموا المتاجر وخذوا الطعام الذي تحتاجونه**». **يسمى هذا العمل في الفكر الفوضوي بـ العمل المباشر** (Direct Action). **هذا ما يؤمن به الفوضويون. «لا توقّعوا عرائض.. ولا تناشدوا الآخرين.. ولا تزوروا نائبكم في البرلمان، بل قوموا بعمل مباشر ضد مصدر مشكلتكم.** هذا ما يفعله العمال عندما يضربون عن العمل. وهذا ما تفعله النساء عندما يقمن بعمل مباشر ضد الرجال أو ضد مصدر الظلم». تم سجن غولدمان بسبب ذلك الكلام. وكان ملفها لدى الـ إف بي آي (FBI) ضخماً. كانت الـ إف بي آي، ترسل دائماً من يتعقّبها، وكان البوليس يتابع خطبها. لم يستطيعوا تسجيل إحدى خطبها ذات مرة لأن العميل المكلف بذلك قال لرئيسه: «حسناً، لقد كانت تتحدث إلى مجموعة من النساء اليهوديات في الجانب الشرقي من المدينة وأنا أعتذر لأنني لم أستطع كتب ملاحظات لأنها كانت تتكلم باليديشية». [أي لغة يهود أوروبا].

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان كل من إيما غولدمان وألكسندر بيركمان قد قضيا فترة معتبرة في السجن. وفي هذا الوقت كانت قد أصبحت خطيبة ومحاضرة شهيرة، وبدأت تخطب ضد الحرب والتجنيد الإجباري. الحرب العالمية الأولى كانت سبباً في اندلاع حالة هستيرية تحدث دائماً أثناء الحرب. كل من يتحدث ضد الحرب يعتبر خائناً. والحكومة تستحدث جواً من الرعب والخوف وتعاقب مجموعة صغيرة من الناس لتخيف الآخرين جميعاً؛ في هذه الحالة في الحرب العالمية الأولى، سجنوا ألف شخص لأنهم تحدثوا ضد الحرب. وعندما تحدث كل من إيما غولدمان وألكسندر بيركمان أمام حشد كبير ضد قانون التجنيد، تم القبض عليهما وأُرسلا إلى السجن، ولم يطلق سراحهما إلا بعد نهاية الحرب.

وفي حالة ليست بعيدة عن الوضع الحالي، أي ما بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، من حيث معاملة المهاجرين والعاملين في الولايات المتحدة، عندما انتهت الحرب العالمية الأولى شنت الحكومة عملية قبض على أناس مقيمين من غير الأمريكان في الولايات المتحدة. ومن دون اتّباع الإجراءات القانونية ومن دون محاكمة أو استجواب، تم وضعهم في سفينة وتسفيرهم إلى الخارج. وكانت المفارقة أن كلاً من إيما غولدمان وألكسندر بيركمان تم ترحيلهما إلى روسيا حيث ولدا، على الرغم من أنها كانت عندما غادراها ـ في ذلك الوقت ـ روسيا القيصرية، ولكن عندما عادا إليها عام ١٩١٩، كانت قد أصبحت روسيا السوفياتية.

ولكن كانا لا يزالان فوضويين. وبالرغم أنهما في البداية رحّبا بخلع النظام القيصري، إلا أنهما وجدا نفسيهما في خلاف عميق

مع النظام البلشفي الجديد تحديداً وتماماً لأنهما فوضويان. لقد كانا ضد الحكم الشمولي، وضد وجود أي سلطة حكومية. في ذلك الوقت كان ماكسيم غوركي[١٢] ينشر جريدة معارضة ولكنها لم تستمر طويلاً لأن البلاشفة كانوا يسجنون المعارضين. ونظراً إلى كونهما معارضَيْن للنظام، غادر كل من غولدمان وبيركمان روسيا بسرعة واستقرا في أوروبا الغربية. لقد اختارا منطقة دافئة على ساحل البحر الأبيض المتوسط في فرنسا وعاشا بطريقة متقشفة هناك منفصلين، ولكن ما زالا صديقين يهتمان بما يجري هناك من أحداث، ألكسندر مرض ثم توفي عام ١٩٣٦، وإيما غولدمان توفيت بدورها عام ١٩٤٠، في كندا، عندما كانت تقوم بزيارة نادرة إلى أمريكا الشمالية.

عندما أذهب إلى أي مكان الآن يجب أن أتكلم عن الحرب الحالية، أي ما يحدث الآن وبماذا يفكر الناس. الناس يتحدثون عن الإرهاب، الناس يتحدثون عن الحرب، وبالتالي يجب علي أن أتكلم عن هذه الأشياء أو سأشعر بأنني لا أقوم بواجبي: أن أتحرك من الماضي إلى الحاضر. إيما غولدمان، كانت محاربة راسخة ضد مفهوم الحروب وكانت قد تحدثت بقوة ضد الحرب الأمريكية ـ الإسبانية، وضد الحرب العالمية الأولى. الفوضويون بصورة عامة كونهم ضد الشمولية ولا يثقون بالحكومات هم غريزياً وفي الأساس ضد الحرب (ولا أستطيع أن أفهم لماذا لا يثقون بالحكومات!).

---

(١٢) **ماكسيم غوركي** (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦): اسمه الحقيقي أليكسي ماكسيموفيتش بيشكوف. أديب وناشط سياسي ماركسي روسي، مؤسس مدرسة الواقعية الاشتراكية التي تجسِّد النظرة الماركسية للأدب، حيث يرى أن الأدب مبني على النشاط الاقتصادي في نشأته ونموه وتطوره، وأنه يؤثر في المجتمع بقوته الخاصة، لذلك ينبغي توظيفه في خدمة المجتمع. (المترجم).

أريد أن أعرف دائماً بماذا يفكر الناس. لقد ألقيت خطبة هذا الصباح على طلاب في مدرسة كامبريدج ريندج الثانوية. وهي مدرسة تضم ٣٠٠ طالب. هناك أيضاً تحدثت عن الحرب. من الواضح أن الناس في جميع أنحاء أمريكا يتعرضون إلى قصف فكري حول أننا يجب أن نساند الحرب وأن نساند الرئيس وأن نحافظ على الوحدة الوطنية، ويجب أن لا نعارض الرئيس مطلقاً، لأنه إما أن تكون معنا أو ضدنا. **وإذا سألت عن حكمة السياسة الأمريكية الخارجية؟ فإن الرد المعلّب والسريع هو: «أووه أنت تبرّر الهجوم على مركز التجارة العالمي»**. وإذا قلت إن هنالك بدائل للحرب، فسوف تشعر أن الناس ينزعجون ويغضبون من كلامك. الكثير من الناس زارتهم الـ إف بي آي، لأنهم انتقدوا الحرب والرئيس الأمريكي، وتكررت هذه الحوادث كثيراً في أنحاء أمريكا كافة. كما استجوبت الـ إف بي آي، عاملاً متقاعداً في غرب أمريكا، لأنه تفوّه بملاحظة نقدية ضد الرئيس بوش في النادي الذي كان يتدرب فيه حين سألوه: «هل أنت عضو في هذا النادي الرياضي؟ وهل قلت هذا الكلام عن الرئيس»؟ كما زارت الـ إف بي آي، امرأة في منزلها حيث قالوا لها: «سمعنا أن لديك بوستراً كبيراً معلقاً في بيتك يصور الرئيس بوش بطريقة غير تبجيلية»، أي إنهم يقولون «يجب أن تمجّدوا بوش».

هذا أمر مخيف. هذه هي الشمولية. الكونغرس وافق على قانون الوطنية الأمريكي[١٣]، حيث تم تعريف الإرهاب بطريقة

---

(١٣) **قانون الوطنية الأمريكي** (The USA PATRIOT ACT): هو قانون أصدره الكونغرس الأمريكي ثم وقعه الرئيس جورج دبليو بوش، ليصبح قانوناً رسمياً في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١. اسم القانون بالإنكليزية هو اختصار لعدة كلمات هي: «توحيد وتعزيز أمريكا (بواسطة) توفير الأدوات الملائمة لاعتراض وعرقلة الإرهاب». =

تسمح للحكومة بحبس أي شخص بسبب كلام قاله. نحن نعيش في وقت أصبح فيه أهم واجب علينا هو أن نعارض المؤسسة الرسمية وبخاصة الرئيس، بينما يهتف الجميع بحماس «يجب أن نتّحد مع الرئيس». إنه الوقت المناسب تماماً لكي نعارض وننشقّ عن النظام.

ولكن المفارقة العظمى هي أنه تماماً في وقت الحروب ـ حيث نتعامل مع الحياة والموت ـ يريدوننا ألا نتكلم. ولذلك يكون لدينا حرية للتعبير في الأمور التافهة فحسب، وليس في الأمور الجوهرية المتعلقة بالحياة والموت. هذا تعريف لطيف وظريف للديمقراطية، أليس كذلك؟ ولكن الأمر ينبغي ألّا يكون كذلك. هذا هو الوقت الصحيح الذي نحتاج فيه للنقاش الحر والصريح، ولذلك أينما ذهبت هذه الأيام أحاول المشاركة في هذا الحوار والنقاش.

لقد ألقيت خطبة مؤخراً مدرسة في نيوتن نورث الثانوية الواقعة في ضواحي بوسطن. لقد تحدثت أمام ٥٠٠ طالب عن الحرب، وبعد أن انتهيت شعرت بغضب أربعة أو خمسة من أولياء أمور، لقد ذهبوا إلى مدير المدرسة وقالوا: «لماذا دعوتموه؟ لماذا تركتموه يتحدث؟». ثم ظهرت رسائل احتجاج في صحف نيوتن ومقالات أعمدة لعدة أسابيع كلها تتحدث عني. يجب أن أقول هنا بأكثر الطرق تواضعاً، ـ أنا أقول هذا فقط

= جاء هذا القانون، رداً على الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، ونتج منه تدنٍ كبير للحريات التي كان يتمتع بها المواطنون والمقيمون في أمريكا وخاصة العرب والمسلمون الذين أصبح من السهل التجسس عليهم لأي شبهة من دون دليل. (المترجم).

لكي أثبت أنه أصبح من الواضح جداً أن طرح أي أسئلة عن الحرب سيخلق نوعاً من الوحشية ضد الديمقراطية. ولهذا نعم، أنا أتحدث بحرية وأكتب بانتظام ضد الحرب ـ أنا أكتب عمود لمجلة **ذا بروغرسيف** [التقدمي].

ومن منطلقين: عملي وأخلاقي، أنا معارض للحرب في أفغانستان والعراق:

فمن الناحية العملية، أتساءل عمّا إذا كانت هذه الحروب فعّالة حقاً لتقليل الإرهاب؟! لأنه على الرغم من مليارات الدولارات الإضافية التي أصبحت تذهب إلى ميزانية الجيش ووزارة الأمن الوطني، فإن الناس لا يزالون قلقون من الإرهاب. هل لاحظتم أن مخاوف الناس من الإرهاب قد قلَّت بسبب الحرب؟ أو منذ الحرب؟ أنا لا أعتقد ذلك. إذا كان ثمة شيء ما يحدث، فهو أن القلق يتزايد. نحن نبدأ المغامرة قائلين: «حسناً، هناك يكمن الإرهابيون. سوف نذهب ونعثر على أسامة بن لادن». نحن لم نفعل حتى ذلك، وحتى لو عثرنا عليه هل يسمى هذا حلاً للإرهاب؟ حسناً، عثرنا على هذه الجماعة وتلك الجماعة، ثم قصفنا كهوفاً في أفغانستان. لقد قالوا كان هناك آلاف من المقاتلين في الكهوف، ولكنهم قبضوا على حفنة من الناس في تلك الكهوف فحسب. أين الآخرون؟ وكما نعلم من الحكومة نفسها، هنالك شبكات إرهابية في أجزاء كثيرة من أنحاء العالم ـ ربما ٤٠ أو ٥٠ بلداً ـ ولكن الرقم يتغير من يوم إلى آخر تماماً مثل أرقام الموظفين الشيوعيين التي كان يحصيها السيناتور جوزيف ماكارثي(١٤)، في وزارة الخارجية الأمريكية.

---

(١٤) **جوزيف ريموند ماكارثي** (١٩٠٨ ـ ١٩٥٧)، سيناتور جمهوري في =

ولكن الحقيقة هي أنه لا أحد يعرف عدد الإرهابيين لا تقريباً ولا تحديداً.

إذا كنت لا تعرف مكان الإرهابيين، فيحقّ لي أن أتساءل: لماذا نقصف أفغانستان والعراق؟ قد يكون هناك شبكة إرهابية في الفيليبين أو سوريا أو الصومال أو إلى ما لا نهاية. ومن الواضح جداً أننا عبر القصف والمزيد من القصف لم نفعل شيئاً عملياً يوقف الإرهاب. إنه مثل أن تُرتكب جريمة قتل جماعي وثم «تسمع» أن الفاعلين يقيمون في كامبريدج[١٥]. إقصف كامبريدج! أو لكي تتخلص من المجرمين في هذا الحيّ ـ أنت تقصف الحي! تستطيع أن تفعل ذلك على أساس أنك قد تقتل المجرم. هذا ما كنا نفعله في أفغانستان، وهو أمر سخيف للغاية من الناحية العملية.

ثم من الناحية الأخلاقية، كم من المدنيين الأبرياء قُتلوا بسبب قصفنا؟ هذه كانت آخر مقالة كتبتها في مجلة **ذا نيشن** بهذا

= مجلس الشيوخ الأمريكي من ولاية وسكنسن في الفترة ما بين عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٧. ومع بدايات عام ١٩٥٠، قاد ماكارثي حملة عنيفة لكشف أسماء المتعاطفين مع الفكر اليساري في الحكومة الأمريكية، وكذلك من مشاهير الفنانين والكتاب من دون دليل ماديّ أو جرم. وفي النهاية أدى نهجه إلى ضعف صدقيّته، وتعنيفه رسمياً بواسطة مجلس الشيوخ الأمريكي، وقد ظهر مصطلح الماكارثية عام ١٩٥٠، في إشارة إلى ممارسات ماكارثي المذمومة، وتم استخدام هذا المصطلح بعد ذلك للتعبير عن الإرهاب الفكري الموجّه ضد المثقفين في كل مكان. (المترجم).

(١٥) **مدينة كامبريدج (Cambridge)**: تطل على الضفة الشمالية لنهر تشارلز وتتبع ميدلسيكس، الواقعة بولاية ماساتشوستس شرقي الولايات المتحدة الأمريكية في نطاق بوسطن الكبرى. سميت على شرف جامعة كامبريدج في إنكلترا. مدينة كامبريدج موطن لاثنتين من أبرز الجامعات عالمياً: جامعة هارفرد، ومعهد ماساتشوستس للتقنية. (المترجم).

الخصوص. لقد كنت أقرأ صحيفة **نيويورك تايمز** بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، التي كانت تنشر صفحة يومياً عن الحرب، فيها صور لضحايا مركز التجارة العالمي والبنتاغون. لقد كانت صوراً صغيرة ولكنها مؤثرة. تلك الصفحة كانت تتحدث عن سيرة قتلانا وعن عائلاتهم. ثم فجأة تجد أرقاماً مثل الرقم ٣,٠٠٠ ـ أو أيّاً كان ـ ليعبّر عن عدد الضحايا. وعندما تأملت: حسناً، لماذا لم يفعلوا الشيء نفسه عن ضحايا قصفنا في أفغانستان والعراق؟ إنها أيضاً «أرقام» مثل «أرقام» ضحايا مركز التجارة والبنتاغون! ومن ثم أحب أن أفكر ليس تحديداً بفاعلي تلك الهجمات، ولكن بعدد كبير من الناس حول العالم حزنوا بسبب تلك الهجمات ـ «حقاً إنه أمر سيّئ» ـ ولكن لم ينفروا ويتبرأوا من فكرة الحرب بصورة كافية. **إنني أتساءل حول هؤلاء الناس الذين لم يشعروا بالنفور من فكرة الحرب من تلك الهجمات: هل كانوا موهومين بحقيقة أنهم لم يعرفوا سوى بـ «أرقام» الناس؟ أي إن الذين كانوا في مركز التجارة كانوا مجرد «أرقام» بالنسبة إليهم؟ لو كانوا قابلوهم وتحدثوا إلى أسرهم، فإن الكثير من هؤلاء الناس سيبدأون في فهم حقيقة ما حصل في نيويورك. والعكس صحيح، لو استطاع الشعب الأمريكي حقاً أن يعرف عن قرب ويشاهد الصور ويقابل أسر الضحايا في أفغانستان والعراق ـ عندها هل سيواصلون مساندة القصف؟** أنا أعتقد أن سبب مساندة الشعب الأمريكي للقصف هو أنهم يصدّقون حقاً دونالد رامسفيلد، لأنه لا أحد يتحدث معهم بهذا الخصوص سواه؛ إفتح التلفزيون وسوف تجده، أقفل التلفزيون وها هو هناك، لا تستطيع الفرار منه. إنه هادئ جداً ومرح وإذا واجه سؤالاً عن الإصابات المدنية يقول: «أووه حسناً نحن نحاول أقصى جهودنا أن لا نصيب أيّ مدني ولكن هذه الأشياء تحدث. إنه دمار مصاحب، أليس كذلك؟». تذكروا تيموثي

مكفاي[16] عندما سأل عن تفجير أوكلاهوما سيتي، قال مكفاي عن الأطفال الذين قتلوا إنه «دمار مصاحب/ جانبي»[17]. لقد تعلم هذا المصطلح خلال حرب الخليج الأولى، عندما استعمل هذا التعبير لوصف المدنيين العراقيين الذين ماتوا بسبب القنابل الأمريكية. ولذلك يقول رامسفيلد: دمار جانبي، أو حادث، أي أمر غير مقصود. وأحياناً يقول: «إنهم يستعملون المدنيين كدروع بشرية عبر وضعهم في مواقع عسكرية». هذا الزعم يغضبني كثيراً. يتم تدمير قرية بالقصف، هل يقصد رامسفيلد أنهم وضعوا أناساً عاديين في تلك القرية لاستعمالها كـ بروباغندا ضد الولايات المتحدة؟ ـ أي كما تعمل هوليود عندما تصنع موقعاً للتصوير؟ كلّا، هناك خطأ ما، والتاريخ مهم هنا. عندما نتعامل مع حدث مثل هذا الذي

(١٦) **تيموثي مكفاي**: إرهابي أمريكي (جندي سابق وحارس أمن لاحقاً)، تم إعدامه لتنفيذه العملية التفجيرية في مدينة أوكلاهوما في ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٩٥، التي أدت إلى مقتل ١٦٨ شخصاً عندما انفجرت شاحنة محملة بـ ٢,٢ طن من المتفجرات واقفة أمام مبنى حكومي ضخم في بداية يوم عمل. وتعتبر أكبر عملية إرهابية في تاريخ أمريكا قبل هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وقد قال تيموثي إنه فعل هذه التفجيرات انتقاماً لمأساة «واكو» التي قتلت فيها الحكومة ٩٠ شخصاً ينتمون إلى طائفة دينية متشددة. تم إعدامه في ١١ حزيران/ يونيو ٢٠٠١، بواسطة حقنة قاتلة. وقد طلب قبل إعدامه أن تتم عملية الإعدام أمام شاشات التلفزة، وأن يتم بثها مباشرة. وطوال فترة محاكمته لم يعرب إطلاقاً عن ندمه، بل على العكس أصر بأنه شخص وطني وبطل وأنه تم تكليفه من الله بإطلاق ثورة في الولايات المتحدة. (المترجم).

(١٧) دمار مصاحب/ جانبي (Collateral Damage)، مصطلح عسكري مضلِّل وخبيث يستخدم لوصف تلف شيء بصورة عرضية بالنسبة إلى الهدف المقصود خلال هجوم عسكري، ويشير في الغالب إلى تدمير عرضي للممتلكات المدنية ينتج منه قتل أو جرح أشخاص مسالمين غير مقاتلين وغير مسلحين. وبحسب معجم **وبستر**، فإن أول استخدام له يعود إلى عام ١٩٧٢، من قبل الجيش الأمريكي خلال حرب فيتنام. (المترجم).

يحدث في قصف أفغانستان والعراق، إذا كنت لا تملك معرفة بتاريخ حروب أمريكا أو سياسة أمريكا الخارجية، فإن الأمر يكون كما لو كنت قد ولدت يوم أمس فقط. ثم مهما أخبرك الناس، لا تملك أي طريقة لكي تتأكد من ذلك.

من المهم جداً تذكر الأكاذيب التي قيلت للناس في الماضي خلال الحروب الماضية. أكاذيب عن «أووه، نحن نقصف فقط الأهداف العسكرية»، ولكن مات مليون مدني في فيتنام. لقد كنت في فيتنام الشمالية عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٢، لقد شاهدت قرى تبعد ١٠٠ ميل عن أقرب هدف عسكري، (كما لو كان هناك العديد من الأهداف العسكرية في فيتنام!) وكانت هذه القرى مدمرة بالكامل بسبب القصف الجوي، ومع مثل هذه المعرفة التاريخية تفهم أن الحكومة تكذب طوال الوقت. هذه الأمور ليست حوادث. وعندما أقول هذا فأنا لا أقصد أن الحكومة تقوم بالتخطيط عمداً لقتل شخص ما. أنا أقصد أنهم لا يهتمون ولا يبالون، لأن إصابة المدنيين أمر حتمي في الحرب. وعندما يكون أمراً كهذا ليس عفوياً ولا متعمَّداً، وهناك موقع بين الاثنين وهو أنه أمر حتمي. ولذلك عندما تقوم بالقصف بهذا الحجم فإنه من الحتمي أن تقوم بقتل عدد كبير من المدنيين، وبخصوص أعداد المدنيين المقتولين في أفغانستان فلا أحد يعرف المجموع الكلي. البنتاغون لا يعرف أو لا يريد أن يخبرنا، وبعض إجاباتهم تكون مثل التالي: «حسناً، نحن لسنا هناك على الأرض، نحن لا نعرف»، لا نستطيع تصديق الطالبان ولا تصديق البنتاغون. ولكن إذا تأملت التقارير المنشورة في الصحف الأمريكية المتناثرة في الصفحات الخلفية لكل من **نيويورك تايمز وواشنطن بوست، وشيكاغو تريبيون**، وأيضاً «قرأت» أخبار رويترز، ووكالة الأخبار الفرنسية، وأيضاً الـ **غارديان**،

والـ **تايمز** اللندنية. أي إذا قمت بجمع أجزاء الصور المتناثرة مع بعضها بعض، فسوف تحصل على صورة مرعبة عن الخسائر البشرية التي ارتكبناها في أفغانستان والعراق. إنها كارثة أخلاقية: لقد رددنا على الإرهاب بالإرهاب. **ولذلك، أنا أجادل من كل من الناحية العملية والأخلاقية أن الحرب لا يمكن الدفاع عنها أو تبريرها. يجب على الناس التحدث ضدها بجرأة وعصيان المواعظ «الوطنية» كما شرحت سلفاً، لأنها تستخدم تعريفاً مشوَّهاً للوطنية. وبدلاً من ذلك يجب خلق نقاش جِدّي حول ما يجري بالفعل. أو بخلاف هذا سوف نصبح ضحايا كما أصبح الناس في مختلف أرجاء العالم ضحايا لحكوماتهم، وبالتالي سمحوا للحروب أن تستمر بصورة متواصلة واحدة تلو الأخرى.**

أولئك الناس منا الذين يتحدثون ويتحركون ضد الحرب، هم في الواقع جزء من تراث تاريخي نبيل وشريف وجليل ـ هم امتداد لـ هنري ديفيد ثورو[١٨] الذي قام بعصيان مدني محتجاً على الحرب في المكسيك، وامتداد لـ يوجين ديبس وإيما غولدمان وهيلين كيلر[١٩]، الذين احتجوا وانتقدوا دخول الولايات المتحدة

---

(١٨) **هنري ديفيد ثورو** (١٨١٧ ـ ١٨٦٢): فيلسوف وشاعر ومؤرخ وعالم طبيعة أمريكي. رفض دفع الضريبة للحكومة حتى لا تستخدمها في تمويل الحروب وليصبح هذا الرفض أهم وسيلة للعصيان المدني، ليرثها عنه لاحقاً مشاهير مثل المهاتما غاندي، وليو تولستوي ومارتن لوثر كينغ. كما اشتهر بالدعوة إلى تحرير العبيد، وهو من طوَّر وروّج لـ «فلسفة السمو المتعالي» التي اقتبسها من الفيلسوف رالف والدو إمرسون. ألّف ٤١ كتاباً جمعت في ٢٠ مجلداً. (المترجم).

(١٩) هيلين كيلر (Helen Keller) (1880- 1968): أديبة ومحاضرة وناشطة سياسية أمريكية، وهي تعتبر إحدى رموز الإرادة الإنسانية، حيث إنها كانت فاقدة السمع والبصر، واستطاعت أن تتغلب على إعاقتها، وكانت أول شخص يحصل على بكالوريوس مع مثل تلك الإعاقة، وتم تلقيبها بـ المعجزة الإنسانية لمقاومتها لتلك =

في الحرب العالمية الأولى، وامتداد أيضاً للجنود الأمريكان الذين عادوا من فيتنام وأصروا على وجوب وقف الحرب، وامتداد للرجال والنساء في الجيش من الذين عادوا من أفغانستان والعراق ثم احتجوا ضد تلك الحروب، مخاطرين بالتعرض لمحاكمات عسكرية.

= الإعاقة حيث إن إنجازها وإصرارها كانا بمثابة معجزة. انتمت إلى الحزب الاشتراكي الأمريكي واشتهرت بمناهضة الحروب. نشطت في عدة مجالات: حقوق المرأة؛ حقوق العمال؛ والدعوة للاشتراكية والقضايا اليسارية. ومن أشهر أقوالها: «عندما يُغلق باب السعادة، يُفتح آخر، ولكن في كثير من الأحيان ننظر طويلاً إلى الأبواب المغلقة بحيث لا نرى الأبواب التي فُتحت لنا». (المترجم).

الفصل الثالث

قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً(*)

«لقد شاهدنا أفلاماً عن كريستوفر كولومبس، ولكنني لا أذكر أي فيلم كشف صورة كولومبس الحقيقية، أي رجل تحكمه الأخلاق الرأسمالية المتوحشة. هل ستنتج هوليوود فيلماً عنه يهوّن من الأخلاق الرأسمالية في قتل الناس من أجل الذهب وهذا ما كان يفعله كولومبس والإسبانيون؟!»

هوارد زِنْ

(*) هذه نسخة منقحة من خطبة ألقيت في مهرجان تاوس للفيلم، تاوس، ولاية نيو مكسيكو، في ١٧ نيسان/ أبريل ١٩٩٩. (المترجم).



هوارد زِنْ (١٩٢٢ ـ ٢٠١٠)

عندما بدأت قراءة التاريخ ودراسة التاريخ وتدريس التاريخ وكتابة التاريخ، كنت دائماً أقع على حوادث وأحداث وأناس يجعلونني أهتف: «واو يا لها من قصة تصلح موضوعاً لفيلم عظيم». وعلى الرغم من أن السينما تقدّم أحياناً قصصاً بغيضة، إلا أنني كنت دائماً أحب الأفلام.

وعندما كنت أقرأ عن أشياء في التاريخ أفكّر أيضاً إذا ما كانت قد تحولت إلى فيلم سينمائي؟ ولكن الحالة لم تكن كذلك أبداً. لقد استغرق الأمر بالنسبة إلي فترة معتبرة لكي أدرك أن هوليوود لن تنتج أفلاماً مثل التي كنت أفكر فيها. أي إن هوليوود لن تنتج أفلاماً تؤثر في الناس لكي يكون عندهم وعي حقيقي أكثر عن طبقتهم الاجتماعية، أو لكي يكونوا مضادِّين لفكرة الحرب بصورة أكثر، أو أكثر وعياً بالحاجة إلى المساواة الجندرية أو العرقية.

لقد تساءلت عن سبب هذا الأمر. لقد بدا الأمر لي بأنه ليس مجرد صدفة بحيث يمكنك أن تقول إنه مجرد غلطة غير مقصودة من جانب هوليوود مثل عدم إنتاج فيلم عن مذبحة «لودلو»[1] في ولاية كولورادو ـ

---

(١) **مذبحة لودلو**: نتجت من هجوم الحرس الوطني في ولاية كولورادو على قرية تتكون من ١,٢٠٠ خيمة يسكنها عمال مناجم الفحم المضربون عن العمل وعائلاتهم في مدينة لودلو، ولاية كولورادو في ٢٠ نيسان/ أبريل عام ١٩١٤. نتج من الهجوم وفاة ٢٥ شخصاً من ضمنهم امرأتان و١١ طفلاً اختنقوا واحترقوا حتى الموت تحت خيمة واحدة. وكان الإضراب ضد شركات تعدين الفحم في ولاية كولورادو وأكبرها مملوكة لعائلة روكفلر. وكان سبب الإضراب هو رفض شركات تعدين الفحم =

مجرد مصادفة، مثل المصادفات التي تسمع عنها عندما تشاهد التلفزيون كما فعلت هذا الصباح. لقد كانوا يشرحون حادثاً عرضياً عندما قصفت قوات النيتو طابوراً من اللاجئين من كوسوفو. هذه الأمور دائماً تعتبر حوادث عارضة أو مصادفات. ولكن الآن قد تتساءلون: «هذا ليس متعمداً. إنهم لم يقصدوا حقاً قتل هؤلاء؟!». ولكن هذه الأمور من النادر أن تكون حوادث عارضة أو مصادفات.

أقصد أن العاملين في هوليوود لم يجتمعوا كلهم في غرفة واحدة ويقرروا: «نحن لن ننتج هذا النوع من الأفلام أو ذلك النوع». وكذلك لا أحد في مركز النيتو أو في الحكومة الأمريكية اجتمعوا معاً وقالوا: «سوف نقصف المدنيين». لا يحتاجون لفعل ذلك ومع ذلك فإنه ليس حادثاً عرضياً أو مصادفة! استعمل أحد المفكرين ذات مرة تعبيراً ليصف الأحداث التي ليست مصادفة أو متعمدة ولكنها تقع في المنتصف بينهما، لقد أطلق عليها «الانتقاء الطبيعي للحوادث»[٢]، بمعنى أنه إذا كان هناك ترتيب محدد لوضعٍ ما، فإن هذه الأشياء سوف تحدث حتماً سواء بالتخطيط أو من دونه. إن تركيب الحرب مبني بصورة تجعل من الحتمي قتل أناس أبرياء. لقد سمعت الرئيس كلينتون يقول: «في الواقع، نحن لم نقصد هذا الشيء، ولكن الإصابات

= الاعتراف بنقابات العمال ومحاولاتها المتكررة لشق صفوف العمال ورفض تحديد ساعات العمل بثماني ساعات يومياً. قامت الشركات بطرد العمال من مساكن الشركات، ولذلك أقاموا في مجموعة من الخيام. (المترجم).

(٢) **الانتقاء الطبيعي للحوادث** (Natural Selection of Accidents): الانتقاء الطبيعي بحسب نظرية التطور هو عملية تدريجية، غير عشوائية تصبح عبرها الصفات البيولوجية إما أكثر أو أقل شيوعاً في المخلوقات وهي الآلية الرئيسة لنظرية التطور. والمقصد هنا أن طبيعة وترتيب وتركيب الحروب تحتّم وقوع الحوادث ضد المدنيين بسبب التطور المستمر لفتك وقوة الأسلحة والقنابل، بحيث تؤدي بنية وتركيب وترتيب الحرب من دون تخطيط مسبق إلى قتل المدنيين حتمياً. (المترجم).

المدنية حتمية عندما تشن الحرب». لقد كان مصيباً تماماً، ما يقودك إلى استنتاجين: إما أن تقبل بالضحايا المدنيين، أو أن تلغي فكرة الحرب. وبالطبع كما تعلمون، الخيار الثاني لا يمكن التفكير فيه.

يبدو أن تركيب الحرب هو كذلك، وتركيب هوليوود هو كذلك أيضاً، أي إنها لن تنتج تلك الأفلام التي تخيَّلتُها عندما بدأت بقراءة وكتابة التاريخ. هناك تركيب يمكن وصفه كالتالي: «بناءً على الحاجة لكسب الكثير من المال»[٣]، أي تركيب تكون فيه الأرباح هي الاعتبار الأول قبل الفن وقبل الجمال والقيم الإنسانية. عندما دعيت إلى هذا المهرجان الخاص بالأفلام تأملت: «حسناً، هذه هي فرصتي، ها هم صانعو الأفلام، سوف أخبرهم عن القصص التي طالما تمنيت أن أشاهدها في فيلم ولذلك سينصتون إليّ وسينطلقون مباشرة لإنتاج تلك الأفلام».

إن هدفي هو أن يتم إنتاج أفلام تستطيع أن تجعل فكرة الحرب مرفوضة ومقرفة للناس. عندما تتأملون في الأفلام التي أنتجتها هوليوود عن الحرب ـ وهناك مئات ومئات منها وربما آلاف ـ فسوف تجدونها دائماً أفلاماً تمجّد البطولة العسكرية. هناك استثناءات قليلة يمكن عدها على أصابع اليدين، ولكن في الغالب نجد أفلاماً تتحدث عن محاربين أبطال أو بطولة عسكرية، أي إنها أنواع من الأفلام لا يمكنها أن تقنع الجمهور الشاب بأنه يجب عليهم عدم تقبل فكرة الحرب وبالتالي عدم المشاركة فيها. لقد بدأت أفكر بكتابة قصص عن بعض الحروب من وجهة نظر مختلفة، وعندما تنظر إلى الحرب من وجهة نظر مختلفة سوف تستنتج كل أنواع الاحتمالات.

دعونا نأخذ واحدة من أفضل حروبنا: الحرب الثورية

---

(٣) Based on the Need to Make Lots of Money . (المترجم).

الأمريكية[٤]، أي حرب الاستقلال الأمريكية. ولكن كيف يمكن أن أتحدث ضد حرب الاستقلال الأمريكية، أليس كذلك؟ لكي نكتب قصة الثورة ليس من وجهة نظر الآباء المؤسسين، ولكن من وجهة النظر التي تقول إن الحرب ظاهرة معقّدة متداخلة مع قضايا أخلاقية، يجب أن نرى أن الأمريكان كانوا مظلومين من المحتلين البريطانيين، ويجب أيضاً أن نرى أن بعض الأمريكان كانوا مظلومين من بعض الأمريكان الآخرين.

الحرب الثورية الأمريكية لم تكن بسيطة؛ فعلى سبيل المثال: الأمريكان الهنود لم يندفعوا للابتهاج بانتصار المستعمرين البيض على إنكلترا، لأن ذلك النصر بالنسبة إليهم كان يعني أن الخط الذي وضعته بريطانيا لمنع التوسع نحو الغرب الأمريكي في إعلان عام ١٧٦٣، سوف يُلغى. المستعمرون الأمريكان سيجدون الحرية للزحف نحو الغرب حيث الأراضي الهندية. الهنود الأمريكان لم

---

(٤) **حرب الاستقلال الأمريكية** (١٧٧٥ ـ ١٧٨٣): أو الحرب الثورية الأمريكية، هي ثورة قامت في المستعمرات البريطانية الـ ١٣ الواقعة في أمريكا الشمالية والتي كانت تابعة للإمبراطورية البريطانية خلال القرن الثامن عشر، والتي استوطنها مهاجرون من أوروبا (إنكليز، فرنسيون، هولنديون...). تمتع سكان البلاد بالوعي الاجتماعي والثقافي متأثرين برواد حركة التنوير الأمريكية، وقد مكنهم ذلك من المطالبة بحقوقهم (المساواة، الحرية، السعادة)، ورفض ضرائب القوانين الجائرة التي أصدرتها الحكومة الإنكليزية. لقد قرر زعماء هذه المستعمرات البريطانية الـ ١٣، أن من حقهم الانفصال عن بريطانيا وتسيير أمورهم بأنفسهم. اندلعت حرب الاستقلال سنة ١٧٧٥، وقاد جيش المتطوعين جورج واشنطُن بدعم من الجيش الفرنسي الذي قاده الجنرال ماركيز دو لافاييت، وأعلن استقلالها في ٤ تموز/ يوليو ١٧٧٦، من قبل ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية خلال مؤتمر فيلادلفيا الثالث. كانت الحرب نتيجة للثورة السياسية الأمريكية، والتي حفزها القول إن «قانون الطابع» الذي أصدره البرلمان البريطاني عام ١٧٦٥، ويقضي بأن يدفع سكان المستعمرات الأمريكية الضرائب للتاج البريطاني، كان غير دستوري. لأن فرض الضرائب من دون تمثيل برلماني للمستعمرات في البرلمان البريطاني كان غير قانوني بحسب القاعدة الشهيرة (No Taxation Without Representation). (المترجم).

يحتفلوا بنجاح الثورة الأمريكية، وأيضاً العبيد السود لم يحتفلوا بنجاح الثورة الأمريكية.

ونستطيع أن نصنّف الناس في أمريكا بعد الثورة الأمريكية كالتالي: ثلث المستعمرين ساندوا الثورة الأمريكية، والثلث الثاني عارضوها، والثلث الأخير كانوا محايدين. لقد كان هذا تقدير جون آدمز[٥]، الذي يعتبر أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية وأحد قادة الثورة الأمريكية. لقد اعتقدت أنه من المفيد أن نروي في فيلم قصة الثورة الأمريكية من وجهة نظر عامل أمريكي عاديّ سمع إعلان الاستقلال[٦]، حينما تم إعلانه من شرفة

---

(٥) **جون آدمز** (١٧٣٥ ـ ١٨٢٦): محام، ورجل دولة ودبلوماسي ومنظّر سياسي أمريكي، وهو أول من تقلّد منصب نائب الرّئيس في الولايات المتحدة بين الأعوام ١٧٨٩- ١٧٩٧، حيث كان نائباً للرئيس الأول جورج واشنطن. أيضاً هو ثاني رئيس للولايات المتحدة الأمريكية التي تولى رئاستها من عام ١٧٩٧ حتى عام ١٨٠١. ينتمي جون آدمز، إلى الحزب الفيدرالي. وقد كان أول رئيس أمريكي يقيم في البيت الأبيض ومارس من خلاله عمله منذ عام ١٨٠٠. (المترجم).

(٦) **إعلان الاستقلال الأمريكي** (The Declaration of Independence)، وثيقة تبناها الكونغرس في ٤ تموز/ يوليو ١٧٧٦، تعلن أن المستعمرات الأمريكية الـ ١٣ المتحاربة مع بريطانيا العظمى، قد أصبحت ولايات مستقلة، وبالتالي لم تعد جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. كتبه بشكل رئيس المفكر توماس جيفرسون وهو أحد الآباء المؤسسين وثالث رئيس للولايات المتحدة. عيد ميلاد الولايات المتحدة الأمريكية - يوم الاستقلال- يحتفل به في الرابع من تموز/ يوليو، يوم اعتماد الكونغرس صيغة الإعلان. بالرغم من الموافقة على الإعلان في الرابع من تموز/ يوليو، إلا أن تاريخ التوقيع عليه هو محل جدل، وقد خلص معظم المؤرخين إلى أن الوثيقة قد وقع عليها تقريباً بعد شهر من تبنيها، في ٢ آب/ أغسطس ١٧٧٦، وليس في ٤ تموز/ يوليو كما في المعتقد السائد. برر الإعلان الاستقلال عن بريطانيا العظمى عبر سرد العديد من المظالم الاستعمارية ضد الملك جورج الثالث، وعبر تأكيد بعض الحقوق الطبيعية للناس، وبخاصة الجملة الثانية في الإعلان التي تجاوزت شهرتها الآفاق كبيان مهم ورئيس لحقوق الإنسان؛ حيث ينص على «أننا نؤمن بالحقائق البديهية التي تقرر أن الناس جميعاً خلقوا سواسية، وأن الله وهبهم حقوقاً معينة ثابتة، منها حق الحياة =

في بوسطن، وكان ذلك الإعلان يعد بالعدل والمساواة. . .إلخ، ثم يعلم العامل بعد ذلك بسرعة أن الأغنياء يمكن أن يُعفوا من الخدمة العسكرية إذا دفعوا بضع مئات من الدولارات. هذا العامل العادي ينظم بعد ذلك للجيش لأنه تم وعده بقطعة أرض على الرغم من تشككه وريبته، وعلى الرغم من مشاعره الخاصة بأنه مظلوم، وشعوره بالظلم ليس من البريطانيين فحسب، ولكن من قادة المستعمرات الأمريكية التي يجد صعوبة في توفير لقمة العيش فيها. ولكن بينما تستمر الحرب، يشاهد القتل، وبتر وتشويه الأجسام، ويصبح بصورة متزايدة مستاءً وناقماً وساخطاً.

لا يوجد مكان في المجتمع حيث يكون تقسيم الطبقات واضحاً مثل الجيش، ويشاهد بنفسه ضباط الجيش الثوري وهم يعيشون بطريقة باذخة، بينما المجندين العاديين بالكاد يجدون ما يكسوهم من الملابس والأحذية وتتأخر رواتبهم، ولا يجدون ما يسد رمقهم سوى حساء أشبه بالوحل، ولذلك ينظم إلى المتمردين.

في الحرب الثورية كان هناك متمردون ضد جيش واشنطن: تمرد خط ولاية بنسلفانيا(٧)، وتمرد خط ولاية نيوجرسي(٨). أعتقد

= والحرية والسعي إلى تحقيق السعادة». ولكن بعد أن حققت هذه العبارة القوية غرضها واستقلت الولايات الـ ١٣ عن بريطانيا، تجاهلت الحكومات الأمريكية المتعاقبة هذه العبارة شبه الدستورية كلما تعارضت مع مصالحها الداخلية أو الخارجية. (المترجم).

(٧) **تمرّد خط ولاية بنسلفانيا**: بدأ في ١ كانون الأول/ يناير ١٧٨١، وانتهى بتسوية عن طريق التفاوض في ٨ كانون الثاني/ يناير ١٧٨١. وكان التمرد الأكثر نجاحاً لجنود الجيش القارّي (١٣ ولاية) في الحرب الثورية الأمريكية. وبالرغم من أن المتمردين ثاروا لتحسين أوضاعهم، إلا أنهم رفضوا الانتقال إلى صفوف البريطانيين بالرغم من إغراء الجنرال البريطاني السير هنري كلينتون. وعاد الكثير من الجنود إلى الجيش فور بروز إرهاصات بوجود حل إيجابي أثناء المفاوضات مع المجلس التنفيذي الأعلى لولاية بنسلفانيا، وشاركوا في الحملات المقبلة. (المترجم).

(٨) **تمرد خط ولاية نيوجرسي**: ألهم تمرد خط ولاية بنسلفانيا (الهامش السابق)، =

من الجميل والمفيد أن نروي قصة عامل ينضم للجيش الثوري ويقاتل في معارك ثم يجرح، ولكن بعدها ينضم إلى خط بنسلفانيا وبالتالي يتمرد معهم. إذ كانوا يزحفون إلى مؤتمر فيلادلفيا الذي اجتمع فيه مندوبو ١٣ مستعمرة بريطانية في القارة الأمريكية للتشاور، ولكن في النهاية يحاصرهم جيش جورج واشنطن ويضطر العديد من رفاقهم القدامى لإطلاق النار عليهم. ثم يقوم هذا الجندي الغاضب مما رأى بالخروج من الجيش ويحصل على أرض في غرب ولاية ماساتشوستس، وبعد نهاية الحرب يصبح متمرداً.

هناك انتفاضة وقعت غرب ولاية ماساتشوستس سميت بـ «انتفاضة شايز»[٩]؛ حيث قام مزارعون صغار بقيادة ضابط سابق [دانيال شايز] بالتمرد ضد الرجال الأغنياء الذي يسيطرون على المجلس التشريعي للولاية، ويفرضون ضرائب عالية عليهم، ويأخذون الأرض والمزرعة من العائلة التي تتأخر في تسديد الديون. انتفاضة شايز، كانت تمرداً شعبياً لمحاربين قدامى من الحرب الثورية، إضافة إلى مزارعين آخرين يحيطون بالمحاكم ويرفضون أن يدخل منظمو المزاد الذين سيبيعون مزارعهم في المزاد العلني. وعندها يتم دعوة الميليشيا لتفريقهم، تأتي الميليشيا وتنضم إليهم، وفي النهاية يظهر

= حدوث تمرد مماثل في خط ولاية نيوجرسي، ولكن بدلاً من التفاوض والتوصل إلى تسوية ملائمة، أعدم العديد من جنود نيوجيرسي المتمردين بتهمة الخيانة العظمى. (المترجم).

(٩) **انتفاضة شايز**: تمرد قاده دانيال شايز، وهو ضابط سابق في الجيش وكان قد شارك في حرب الاستقلال. وقعت الانتفاضة في غرب ولاية ماساتشوستس في عام ١٧٨٦. احتج شايز وأتباعه على إغلاق المزارع ونزع ملكيتها بسبب عدم تسديد الديون، ونجح لفترة وجيزة في إغلاق نظام المحاكم، على الرغم من قمع الانتفاضة بسهولة بواسطة ميليشيا من المرتزقة تابعة لأثرياء بوسطن، إلا أنها أقنعت المحافظين بضرورة وجود حكومة مركزية وطنية قوية ساهمت في حركة إعادة صياغة الدستور. (المترجم).

جيش مرتزق يموِّله أغنياء بوسطن ويقضي على انتفاضة شايز.

لم أشاهد مطلقاً أي إنتاج سينمائي لهوليوود يروي هذا النوع من القصص. لقد تحدثت مع شخص خبير في الأفلام وقلت له: «حسنا، أعتقد أنني من المحتمل عند نقطةٍ ما سأقول إنني أنتظر فيلماً مثل هذا يتم إنتاجه، وعندما يقول لي شخص: «نعم، لقد تم إنتاجه»، ولكن لا أعتقد أن ذلك الفيلم هو عن تلك القصة نفسها التي رويتها للتو. وإذا تحدثت عن فيلم أعتقد أنه ينبغي إنتاجه وأنت تعرف أنه بالفعل تم إنتاجه، أرجو أن تبلغني فوراً حتى نحتفل بهذه المناسبة النادرة».

الحروب يمكن وصفها بطريقة تعقِّد السيناريو البسيط «الخير ضد الشر»، الذي يقدَّم لنا في كتب التاريخ وفي ثقافتنا. الحروب ليست ببساطة هجوم شعب ضد آخر، بل دائماً تتضمن اختلافات طبقية داخل كل طرف حيث النصر دائماً لا يتشارك فيه الجميع ولكن القلة فحسب. كما إن الناس التي تقاتل في الحروب ليست هي الناس التي تنتفع من الحروب.

وأعتقد أنه على شخصٍ ما أن ينتج فيلماً عن الحرب المكسيكية[١٠]. أنا لم أشاهد أي شيء عنها يوضِّح كيف بدأت تلك

---

(١٠) **الحرب الأمريكية ـ المكسيكية**: حرب وقعت بين الولايات المتحدة والمكسيك، واستمرت من عام ١٨٤٦ حتى عام ١٨٤٨، في أعقاب ضم الولايات المتحدة عام ١٨٤٥ لجمهورية تكساس التي كانت قد انفصلت عن المكسيك عام ١٨٣٦، ولكن الأخيرة لم تعترف بالانفصال وتمسكت بها جزءاً من أراضيها. احتلت القوات الأمريكية بسرعة منطقتي نيو مكسيكو وكاليفورنيا التابعتين للمكسيك، ثم غزت أجزاء من شمال شرق وشمال غرب المكسيك، وفي الوقت نفسه، حاصرت البحرية الأمريكية الحاميات المكسيكية على المحيط الهادي، وسيطرت على عدة حاميات في جنوب منطقة كاليفورنيا. وبعد رفض المكسيك التنازل عن أراضيها الشمالية، احتل الجيش الأمريكي العاصمة مكسيكو سيتي، وهكذا انتهت الحرب بنصر للولايات المتحدة. (المترجم).

الحرب أو كيف خدع الرئيس الأمريكي الشعب الأمريكي. أعرف أنه من العجيب أن تسمعوا أن الرئيس الأمريكي يخدع عمداً شعب الولايات المتحدة، ولكن تلك كانت هي الحقيقة حيث قال فيها الرئيس جيمس بولك[١١] للشعب الأمريكي إن الجيش المكسيكي أطلق النار علينا داخل التراب الأمريكي. ولكن في الحقيقة لم يكن ذلك على التراب الأمريكي بل كان على أرض متنازع عليها من قبل المكسيك وأمريكا. وخلال تلك الحادثة قتل بعض الناس، ومن ثم... «بوووم» أصبحنا في حرب، أقصد في حرب خطط لها سلفاً من قبل إدارة بولك، لأنها كانت ترغب في ضم واحتلال تلك القطعة الجميلة من الأرض في جنوب غرب أمريكا.

أعتقد أنه من الجميل والمفيد أن نروي تلك القصة مجدداً من وجهة نظر جندي عادي في الحرب المكسيكية حيث يرى القتلى والمشوَّهين والدماء، بينما يشقّ الجيش الأمريكي طريقه نحو المكسيك مدمِّراً ما يجد في طريقه مدينة إثر مدينة. مثل هذه القصة سوف تشرح وتصف كيف يزيد سخط هؤلاء الجنود من الحرب تدريجياً، وأنه بينما يقومون بالزحف النهائي نحو العاصمة مكسيكو سيتي بقيادة الجنرال سكوت، يستيقظ هذا الجنرال في الصباح ليجد أن نصف جنوده قد فرُّوا من الجيش. سيكون من المثير والرائع أن نروي هذه القصة من طرف أحد متطوعي ولاية ماساتشوستس الذي يعود في نهاية الحرب ويحصل على دعوة للاحتفال بالنصر في تلك الحرب التي احتلت فيها الولايات المتحدة نصف المكسيك. وفي الوقت الذي يتم فيه تكريم قائد متطوعي ماساتشوستس على

(١١) **جيمس بولك** (١٧٩٥ ـ ١٨٤٩): الرئيس الحادي عشر للولايات المتحدة الأمريكية وذلك من عام ١٨٤٥ حتى عام ١٨٤٩. (المترجم).

المسرح، يحاول أن يتكلم وهو على المنصة ولكنه يستقبل باستهجان وازدراء من النصف الباقي من بقية متطوعي ماساتشوستس الذين ما يزالون أحياء، والذين يفكرون في ما حدث لرفاقهم في تلك الحرب والذين ينظرون حولهم ثم يتساءلون: لماذا كانوا يقاتلون في تلك الحرب؟ ينبغي أن أقول لكم.. لقد حدث هذا بالفعل.

تلك القصة تشمل أيضاً مشهداً يزحف فيه الجيش الأمريكي ليسيطر على مقاطعة سلبت من المكسيك. القوات الزاحفة تتوجه نحو شمال المكسيك أي ما نسميه الآن بـ «ولاية نيو مكسيكو»(١٢). إنهم يدخلون مدينة سانتا فيه، حيث ينبغي عليهم أن يفضوا تمرّداً لأنه في الغالب المكسيكيون هم من يعيش هناك وحكومة الولايات المتحدة تسيطر على تلك المنطقة. الجيش يزحف خلال شوارع سانتا فيه بعد النصر العسكري. جميع سكان سانتا فيه، يدخلون بيوتهم ويقفلون أبوابهم ونوافذهم، ولذلك يواجه الجيش مقاومة صامتة وهي تعبير عن ما يشعر به السكان عن هذا النصر الأمريكي العظيم.

هناك شيء صغير يتعلق بالحرب المكسيكية قد يجعل من الفيلم أكثر إثارة، وهو قصة بعض الفاريّن من الجيش. الكثير من الناس الذين تطوعوا في الحرب المكسيكية، فعلوا ذلك للسبب نفسه الذي من أجله يتطوع الناس الفقراء وأعضاء الطبقة العاملة للجيش اليوم. إن السبب ليس لأنهم مقتنعون بفكرة الحرب، بل لأنهم بائسون وفقراء فحسب، ويتمنون أن يحصلوا على بعض المال إذا انضموا

---

(١٢) **نيو مكسيكو**: هي ولاية أمريكية تقع جنوب غرب الولايات المتحدة. عاصمتها سانتا فيه، وأكبر مدنها ألبكركي. مساحة نيو مكسيكو تبلغ ٣١٥,١٩٤ كم مربعاً، وهي خامس أكبر الولايات المتحدة. يبلغ عدد سكان الولاية ١٨١٩٠٤٦ نسمة، بحسب تعداد عام ٢٠٠٠. انضمت إلى الولايات المتحدة في ٦ كانون الثاني/ يناير ١٩١٢ (الولاية الرقم ٤٧)، وتم فيها تفجير أول تجربة لقنبلة نووية في التاريخ. (المترجم).

إلى الجيش. خلال الحرب المكسيكية كان بعض هؤلاء المتطوعين من المهاجرين الجدد وأكثرهم من أيرلندا. العديد من هؤلاء الجنود الإيرلنديين عندما شاهدوا ما وقع على سكان المكسيك فروا وانضموا إلى الجانب المكسيكي. أنا لا أعرف بالضبط عددهم ولكن هذا حدث بالفعل، وربما يعرف سكان نيو مكسيكو الكثير عن هذا الأمر. لقد شكّلوا كتيبة خاصة بهم وقاتلوا مع المكسيكيين وأطلق عليهم كتيبة سانت باتريك (التي أصبحت في ما بعد سانت باتريسيو) وكان هذا حدثاً مدهشاً في الحرب المكسيكية.

لقد تذكرت هذا الحدث عندما كنت أفكر في الحرب في الفيليبين، مباشرة بعد الحرب الأمريكية ـ الإسبانية. ليس من السهل أن نجعل الحرب الأمريكية ـ الإسبانية حدثاً نبيلاً، على الرغم من أن هوليوود بالفعل تستطيع أن تفعل أي شيء، ولكن لا أعتقد أنها حصلت على اهتمام في فيلم.

في الكتب الجامعية والفصول الدراسية للتاريخ، يطلق على الحرب الأمريكية ـ الإسبانية «الحرب الصغيرة الرائعة». لقد استمرت ٣ شهور وكانت انتصاراً سريعاً على الإسبانيين. لقد قمنا بها لتحرير الكوبيين لأننا دائماً نخوض الحروب لتحرير أناس آخرين. لقد طردنا الإسبانيين من كوبا ولكننا لم نخرج من كوبا. ومن الناحية العملية الولايات المتحدة سيطرت على كوبا من تلك النقطة فصاعداً. أحد الأشياء التي نأخذها ضد فيديل كاسترو، أنه أنهى سيطرة الولايات المتحدة الطويلة على كوبا. وعلى الرغم من أن الثورة الكوبية معقدة، إلا أنني أعتقد أنه من العدل أن نقول إنها أحد المآخذ التي تأخذها الولايات المتحدة ضد كاسترو. أنا لا أصدق أن مأخذ الولايات المتحدة ضد كاسترو هو أنه ببساطة ديكتاتور لأننا كنا وما زلنا دائماً نؤيد المستبدّين، أليس كذلك؟

الحرب الأمريكية ـ الإسبانية تحصل على بعض الانتباه بسبب بطولة ثيودور روزفلت[١٣]، وسلاح الفرسان. . . إلخ. أتذكر أنني قرأت شيئاً عنها في المدرسة ولكنهم لم يخبرونا بأي شيء عن الحرب في الفيليبين. لقد تعلمنا شيئاً هو أنه نتيجة تلك الحرب استعمرنا الفيليبين لكنني لم أعرف التفاصيل مطلقاً.

عندما نقرأ ونتعمق في الحرب الأمريكية ـ الإسبانية، نعلم أنها استمرت لثلاثة شهور، ولكن حرب الفيليبين استمرت لسنوات وسنوات وكانت وحشية وكانت عبارة عن قمع دموي لحركة الاستقلال الفيليبيني. وبطرق عديدة، إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الجيش الأمريكي في الجزر الفيليبينية يمكن القول إنها كانت بمثابة تمهيد لحرب فيتنام. الآن وكما سمعتم، فإن هذه القصة لم يتم الحديث عنها مطلقاً ربما لأنه لا يمكن نسبها إلى البطولة العسكرية أو إلى مجد الولايات المتحدة. لقد كان هناك جنود أمريكان سود في حرب الفيليبين ولكنهم بسرعة اندمجوا مع الفيليبينيين أكثر من رفاقهم الأمريكان البيض. لقد كانوا واعين لحقيقة أنه بينما ينبغي عليهم قمع الفيليبينيين، إلا أنهم كانوا يعلمون من الرسائل التي تصلهم من ذويهم من أمريكا عن شنق السود والانتفاضات العرقية التي تحدث في مدنهم. لقد سمعوا عن قتل عدد كبير من السود في أمريكا، ولكن هاهم الآن يقاتلون ضد أناس من غير البيض لمصلحة حكومة الولايات المتحدة. ولذلك فرّ الكثير من الجنود السود وانضموا إلى الفيليبينيين.

وعندما أصبح من المفترض أن تنتهي الحرب في الفيليبين في عام ١٩٠٦، كان الجيش الأمريكي في الواقع لا يزال يحاول قمع جيوب المقاومة الفيليبينية حيث وقعت مذبحة. هذه هي الطريقة

---

(١٣) انظر: **الفصل الأول**، الهامش الرقم ٩ من هذا الكتاب. (المترجم).

الوحيدة لوصف ما حدث. المسلمون الفيلبينيون «المورو» هم سكان الجزر الجنوبية من الفيليبين، وكان هناك قرية يسكنها ٦٠٠ شخص من المورو (رجل وامرأة وطفل) وجميعهم غير مسلحين. هجم الجيش الأمريكي عليهم بصورة جماعية مفاجئة حتى أفناهم جميعاً. الأديب الأمريكي مارك توين، كتب بغضب عن هذه الحادثة. لقد غضب بصورة خاصة لأن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت، أرسل برقية تهنئة للقائد الأمريكي الذي قاد هذه المجزرة حيث وصفها ثيودور روزفلت بالنصر الأمريكي العظيم. مثل هذا الأمر تكرر مرة بعد أخرى: عندما يقوم الجيش الأمريكي بأعمال مقيتة يتم تهنئتهم بالانتصارات العظيمة. هل شاهدتم في حياتكم فيلماً سينمائياً بصور ثيودور روزفلت كعنصري أو إمبريالي؟ أو سفاح مساند للمذابح؟ ولكن ستجدون وجهه منقوشاً على جبل المشاهير [أي جبل راشمور][١٤]. ولذلك سنحتاج إلى كثير من الجهد لتغيير هذا، لقد راودتني فكرة لإزالة وجهه من الجبل ـ مطرقة/ إزميل ـ ولكن كلّا! لن تفي بالغرض!!!

ينبغي إظهار الحروب في الأفلام بطريقة مبتكرة لكي توجد

(١٤) **جبل راشمور** (Mount Rushmore): هو نصب تذكاري لأوجه أربعة رؤساء أمريكيين منحوتاً في الغرانيت بارتفاع ٦٠ قدماً (١٨ متر). الرؤساء هم: جورج واشنطن، توماس جيفرسون، ثيودور روزفلت، وأبراهام لينكولن. يقع الجبل بالقرب من كيستون بولاية داكوتا الجنوبية الأمريكية. أشرف على أعمال النحت الفنان الأمريكي الدانمركي غاتزن بورغلم وابنه لينكولن بورغلم. وترجع فكرة نحت أوجه المشاهير في منطقة بلاك هيلز من ولاية داكوتا الجنوبية، للمؤرخ دون روبنسون الذي اقترحها من أجل تشجيع السياحة في المنطقة. وكانت فكرة روبنسون الأولية أن يتم نحت منطقة الإبر التي تتميز بقطع غرانيت ذات رؤوس حادة، ولكن النحات بورغلم رفض موقع الإبر واختار جبل راشمور، أكبر جبال المنطقة. بورغلم قرر أيضاً أن يكون التركيز أكثر وطنية، واختار الرؤساء الأربعة الذين سيتم نحت صورهم على الجبل. يزور الموقع أكثر من مليوني زائر كل سنة. (المترجم).

جيلاً جديداً من الناس يستطيعون أن يقولوا «كلّا» للحرب. نريد أن نشاهد مثل هذه الأفلام أكثر وأكثر. نريد أن نشاهد أفلاماً عن أولئك الأمريكان الأبطال الذين احتجوا ضد الحرب العالمية الأولى. لقد كان هناك اشتراكيون ومسالمون [باسيفيست Pacifist] وبالطبع كان هنالك الكثير من الناس الذين كانوا يعلمون أن الحرب مجرد حماقة أدت إلى مقتل عشرة ملايين في أوروبا بينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستعد لدخولها. نحن نبحث عن أشخاص يمكنهم بالفعل أن يكونوا مثيرين ومذهلين كشخصيات في الأفلام. انظروا إلى بعض الناس الذين، في ذلك الوقت الحساس خلال الحرب العالمية الأولى، عارضوا تلك الحرب. سوف تجدون إيما غولدمان النسوية الفوضوية التي دخلت السجن لأنها عارضت تلك الحرب وكانت ضد التجنيد الإجباري. وستجدون أيضاً المناضلة هيلين كيلر التي لم أشاهدها في أي فيلم مطلقاً باستثناء ذلك النوع من الأفلام الذي يركز على كونها معاقة. لم أشاهد مطلقاً أي فيلم عن هيلين كيلر يصوّرها كما كانت فعلياً: مناضلة، راديكالية، اشتراكية، وناشطة ضد الحرب. لقد كانت إنسانة من ذلك النوع النبيل الذي يرفض حتى عبور خط الاحتجاج الموضوع ضد مسرحية تتحدث عنها. يا له من موضوع رائع لفيلم سينمائي. أنا أيضاً أفكر في شخصية مثل الاشتراكية كايت ريتشاردز أوهير[١٥]، التي وضعت في السجن لأنها عارضت الحرب العالمية الأولى. يمكن أن يكون في الفيلم مشهد عظيم ومؤثر عندما كانت داخل السجن، وكادوا يختنقون لعدم وجود هواء نقيّ. لقد أخذت كتاباً

(١٥) **كايت رينشاردز أوهير** (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨): مناضلة أمريكية وناشطة في الحزب الاشتراكي الأمريكي، عملت كرئيسة تحرير، وخطيبة واشتهرت بعد سجنها المثير للجدل خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

كانت تقرأ فيه وأخرجته من بين قضبان الحديد نحو فتحة في السقف لكي يسمح بدخول الهواء إلى تلك الزنزانة عبر فتحة الكتاب ثلاثية الشكل. لقد هتف جميع المساجين وابتهجوا لأنهم في النهاية حصلوا على بعض الهواء النقي.

أستطيع الحديث كثيراً عن قصص وسيناريوهات عن الحروب. ماذا عن الحرب العالمية الثانية؟ مجدداً، إنها «حرب جيدة» بالطبع. أفضل الحروب! ولكن الأمر ليس بتلك البساطة، وهذا هو السبب الذي جعل المؤرخ ستادس تيركيل[١٦] ـ عندما كتب تاريخه الشفوي ـ يصفها بالحرب الجيدة ووضع علامات تنصيص حول «حرب جيدة» إذا كنتم قد لاحظتم. في تلك الحرب، كان لدينا تعاطف إنساني، لقد كنّا نقاتل شيطاناً فظيعاً (الفاشية)؛ ولكن من ناحية أخرى كان هناك حرب تميّزها فظائعنا نحن التي كانت تتضاعف حتى بلغت الذروة في هيروشيما ونكازاكي. أنا لم أشاهد فيلماً يتعامل بعدل مع قصفنا لهيروشيما. أفضل ما أنتجناه هو فيلم تعامل مع قصفنا للمدنيين مبنيّ على كتاب كورت فونيغت[١٧] المسلخ رقم خمسة[١٨]، وكان ذلك أمراً نادراً وغريباً.

يجب أن أعترف أن هناك بالفعل عدداً محدوداً جداً من الأفلام المناهضة لفكرة الحرب وكانت عن الحرب العالمية الأولى. على

---

(١٦) لويس (ستادس) تيركيل (١٩١٢ ـ ٢٠٠٨): كاتب ومؤرخ وممثل ومذيع أمريكي من أصل روسي يهودي، حصل على جائزة بوليتزر للكتاب غير الروائي (Non-Fiction) في عام ١٩٨٥، عن **الحرب الجيدة**، وهو كتاب تاريخ شفوي للحرب العالمية الثانية، كتب عبر مقابلات مع أناس عاصروا الأحداث منذ بدء التدخل الأمريكي حتى النهاية. كما اشتهر بتقديم برنامج إذاعي لفترة طويلة في شيكاغو. (المترجم).

(١٧) انظر: **الفصل الأول**، الهامش الرقم ١٨ من هذا الكتاب. (المترجم).

(١٨) انظر: **الفصل الأول**، الهامش الرقم ١٩ من هذا الكتاب. (المترجم).

سبيل المثال هناك فيلم «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية»[19]، الذي يعتبر فيلماً رائعاً. لقد قارنت في مقالة لي مؤخراً بين هذا الفيلم والفيلم الحديث «إنقاذ الجندي رايان»[20]. لقد كتبت أنه على الرغم من التشويه المتعمد، إلا أن فيلم «إنقاذ الجندي رايان» كان في جوهره يمجد فكرة الحرب، في حين كان عنوان الفيلم الآخر واضحاً ومعادياً للحرب: «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية».

هناك العديد من القضايا المرتبطة بالطبقة ونزاع الطبقات وكفاح الطبقات في أمريكا بحيث نستطيع أن نتعامل معها في فيلم سينمائي. لقد شاهدنا أفلاماً تناقش قضايا الطبقة العاملة، ولكن الوضع كان دائماً أن هناك شخصاً ما في الطبقة العاملة يبرز بسبب مشكلة شخصية ويجعلها بالتالي تنطبق على المجتمع الأمريكي. هناك العديد من القصص عن الأمريكان الذين ينظمون ويجتمعون على حدود الطبقات لكي يعارضوا السلطات التي تقمعهم، ولكن حالياً أصبحت

---

(١٩) **كل شيء هادئ على الجبهة الغربية**: فيلم حربي ملحمي أمريكي عرض عام ١٩٣٠، مبني على رواية إريش ماريا ريمارك، التي تحمل الاسم نفسه. قدم هذا الفيلم وصفاً واقعياً ومروعاً للحرب العالمية الأولى. (المترجم).

(٢٠) **إنقاذ الجندي رايان**: فيلم أمريكي إنتاج عام ١٩٩٨، من إخراج ستيفن سبيلبرغ، وبطولة توم هانكس، وحاز على جائزة الأوسكار عام ١٩٩٨ لأفضل مخرج. تدور أحداث الفيلم في فترة الحرب العالمية الثانية حول عملية إنقاذ تقوم بها مجموعة صغيرة يرأسها النقيب جون ميلر (توم هانكس) للعثور على المجند رايان لإعادته إلى الوطن بعد مقتل ٣ من أشقائه في الحرب الدائرة نفسها. بلغت ميزانية الفيلم ٧٠ مليون دولار ولكنه حصد ٤٨٠ مليون دولار. وهنا المعضلة التي يقصدها المؤلف حيث كان الإقبال على فيلم يمجّد الحرب والقتل، عظيماً من الجمهور الشاب الذي لا يعي خطورة فكرة الفيلم وزرعه ما يسمى بـ فكرة «الحرب العادلة» في «لاشعوره». ومن اللافت أن المخرج الأمريكي الشهير أوليفر ستون، اتهم هذا الفيلم بالترويج لـ «عبادة الحرب العالمية الثانية وبأنها حرب جيدة»، وذلك جنباً إلى جنب مع أفلام مثل «المصارع» (غلاديتور) و«بلاك هوك داون» التي وصفها بأنها جيدة فنياً ولكن قد تكون هيأت الناس بطريق غير مباشر لغزو العراق عام ٢٠٠٣. (المترجم).

هذه الأمور نادرة. لن تجدوا أفلاماً عن نضال عاملات النسيج: الفتيات اللاتي ذهبن للعمل في معامل النسيج في ماساتشوستس في لويل ولورنس منذ بدايات القرن التاسع عشر. هناك قصة رائعة عن فتيات لويل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر اللاتي نظَّمن أنفسهن وأضربن. لن تجدوا أفلاماً عن إنجازاتهن ولن تجدوا أفلاماً عن التاريخ الغني بنضالات العمال التي حدثت في الولايات المتحدة. وعلى أية حال، النظام الأمريكي العام الذي صنعه الدستور، والنظام السياسي الأمريكي، والدستور العظيم والشهير للولايات المتحدة، لم يمنح أي حقوق اقتصادية للشعب الأمريكي. **نحن دائماً ننسى أن الدستور يعطي حقوقاً سياسية ولا يعطي حقوقاً اقتصادية. وحتى تلك الحقوق السياسية تعتبر مقيَّدة بسبب عدم وجود حقوق اقتصادية. إذا لم تكن ثرياً فإن حقوقك السياسية تصبح محدودة حتى وإن كانت توجد على الورق في الدستور. حرية التعبير موجودة في الدستور، ولكن مقدار حرية التعبير التي تتمتع بها، تعتمد على ما تملكه من ثروة أو مال وغيرهما من الموارد.** ولكن في ما يتعلق بالحقوق الاقتصادية، لا يوجد شيء مطلق في الدستور. هناك «إعلان الاستقلال»: الحق في الحياة، والحرية وتحقيق السعادة. ولكن كيف يمكن تحقيق هذه الغايات إذا لم تكن تملك الحق في الطعام والسكن والعلاج الطبي.

الطبقة العاملة خلال مسار التاريخ اضطرت إلى التنظيم والكفاح والإضراب والنضال وإعلان المقاطعة ومواجهة الجيش والشرطة والحرس الوطني. لقد كان يتوجب عليهم فعل ذلك بأنفسهم على الرغم من معارضة الحكومة وذلك حتى ينتصروا في تحقيق إنجاز مذهل، وهو تحديد ساعات العمل بثماني ساعات في اليوم، وذلك لتغيير ظروف عملهم الشاقة. ولذلك، أقول إنه يجب إنتاج فيلم عظيم عن إضرابات عمال سكك الحديد عام ١٨٧٧، أو عن حادثة سوق البرسيم عام ١٨٦٦، التي كانت أيضاً جزءاً من

النضال لتحديد ساعات العمل بثماني ساعات في اليوم. حادثة سوق البرسيم انتهت بإعدام أربعة من الفوضويين الذي اتهموا بزرع قنبلة، بالرغم من عدم وجود دليل عن الفاعل الحقيقي.

وماذا عن قصة إضراب يوجين ديبس[٢١] وإضراب عمال القطارات العظيم في عام ١٨٩٤، الذي قاموا فيه بإعاقة جميع عمليات السكك الحديد في الولايات المتحدة الأمريكية، ونتج منه تحريض كل من الجيش والمحاكم ضدهم؟ شخصية ديبس تصلح لتكون موضوع فيلم رائع، ولكن لم يسبق لي مطلقاً أن شاهدت فيلماً كان هو فيه الشخصية المركزية. لقد شاهدت أنواعاً عديدة من الأفلام من النوع التي يرثى لها ولكن لم أشاهد مطلقاً يوجين المذهل الذي يبدأ كمنظم نقابي لعمال السكك الحديدي **ثم يدخل السجن ويخرج منه كاشتراكي، نعم، السجن يفعل ذلك بالناس، ولذلك ينبغي على الحكومة أن تحذر من عدد الناس الذين ترسلهم إلى السجن ـ هناك حالياً مليونان من الناس في السجن وإذا فعلوا جميعاً كما فعل ديبس، حسناً!** عندما أطلق سراحه في النهاية بعد أن دخل السجن بسبب معارضته الحرب العالمية الأولى ليس من قبل الليبرالي وودرو ويلسون[٢٢] ولكن من قبل

---

(٢١) **يوجين ديبس** (١٨٥٥ ـ ١٩٢٦): زعيم نقابي أمريكي وأحد مؤسسي نقابة عمال العالم واتحاد عمال العالم. ترشح عدة مرات عن الحزب الاشتراكي الأمريكي لرئاسة الولايات المتحدة. ومن خلال ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة، فضلاً على عمله مع الحركات العمالية، أصبح ديبس في نهاية المطاف أشهر شخصية اشتراكية في الولايات المتحدة. (المترجم).

(٢٢) **وودرو ويلسون** (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤): كان أكاديمياً في مقتبل حياته حتى صار رئيساً لجامعة برنستون، ثم أصبح الحاكم رقم ٤٥ لولاية نيوجرسي من عام ١٩١١ حتى عام ١٩١٣. وكان ثاني رئيس ديمقراطي يحكم لمدتين متواليتين في البيت الأبيض بعد أندرو جاكسون. تولى الرئاسة بعد فوزه في انتخابات عام ١٩١٢، كمرشح عن الحزب الديمقراطي ضد كل من الرئيس ويليام هوارد تافت، والرئيس السابق ثيودور روزفلت. (المترجم).

المحافظ وارن هاردينغ[٢٣]. ـ ديبس ترك انطباعاً إيجابياً لدى زملائه المساجين لدرجة أن مأمور السجن فتح جميع الزنزانات وأخرج جميع السجناء إلى الساحة لكي يودعوا ديبس؛ لقد صفقوا وهتفوا جميعاً عندما حصل على حريته.

كما إننا نحتاج إلى فيلم عن إضراب عام ١٩١٢ لعمال النسيج في لورنس[٢٤]، ويا له من حدث مذهل. لكن كان مذهلاً لأن الكثير من الإضرابات تخسر ولكن هذا الإضراب انتصر. لقد كان إضراباً لعمال متعددي الثقافات وكانوا يتحدثون ١٢ لغة مختلفة، ولكنهم اجتمعوا معاً، وتحدَّوا شركات النسيج والشرطة التي أرسلت إلى سكة الحديد لمنع أطفال العمال من المغادرة. الشرطة هاجمت النساء والأطفال في محطة القطار لأنهم لم يكونوا يريدون للأطفال المغادرة والأمن، لأن الشرطة كانت تريد تجويع المضربين، وهو ما قد يصبح أقل احتمالاً للحدوث إذا كان أطفالهم في أمان. ولكن المضربين صمدوا وساندهم اتحاد عمال العالم وانتصروا في النهاية. وخرجت أغنية «خبز وورد». لقد كان حدثاً مدهشاً ورائعاً.

---

(٢٣) **وارن هاردينغ** (١٨٦٥ - ١٩٢٣): هو الرئيس الـ ٢٩ للولايات المتحدة الأمريكية، وقد انتخب عن الحزب الجمهوري. كانت مدة حكمه من عام ١٩٢١ حتى وفاته عام ١٩٢٣، حيث توفي قبل أن يتم ولايته. (المترجم).

(٢٤) **إضراب عام ١٩١٢ لعمال النسيج في لورنس**: كان إضراباً من العمال المهاجرين في لورنس بولاية ماساتشوستس بقيادة اتحاد عمال العالم. ونتج من قيام صاحب مصنع بتخفيض أجور العمال بعد دخول قانون جديد بتقصير أسبوع العمل (من ٥٦ إلى ٥٤ ساعة) حيز التنفيذ. انتشر الإضراب بسرعة عبر المدينة، وتزايد إلى أكثر من ٢٠,٠٠٠ عاملٍ، شمل كل مصنع تقريباً في غضون أسبوع. وكان الإضراب الذي استمر أكثر من شهرين، والذي تحدى افتراضات نقابات العمال المحافظة أنه لا يمكن العمال المهاجرين، والإناث تنظيم إضرابات ناجحة، ولكن بعد عام واحد، انهار الاتحاد واختفت معظم المكاسب التي حققها العمال. (المترجم).

هناك أيضاً مذبحة لودلو، التي حدثت خلال إضراب عمال الفحم في ولاية كولورادو في ١٩١٣ ـ ١٩١٤. لقد كان واحداً من أشد الإضرابات دموية ودراماتيكية في تاريخ أمريكا ضد أعمال روكفلر[٢٥]. ليس من السهل إنتاج فيلم عن أعمال روكفلر. أحد أبرز زعماء ذلك الإضراب كانت المنسقة النقابية مذر جونز[٢٦] وهي امرأة عمرها ٨٣ عاماً كانت تعمل في تنظيم العمال في ولايتي ويست فرجينيا وبنسلفانيا. قادت مذر جونز الأطفال في زحف من بنسلفانيا إلى نيويورك لمواجهة الرئيس ثيودور روزفلت، لأن هؤلاء الأطفال كانوا يعملون في مصانع النسيج وأعمارهم تتراوح بين ١١

---

(٢٥) **عائلة روكفلر**: أسسها جون دايفسون روكفلر (١٨٣٩ ـ ١٩٣٧)، ويعرف أيضاً بـ جون د. روكفلر. كان الأب من كبار رجال الأعمال والصناعيين في الولايات المتحدة الأمريكية، وأدى دوراً محورياً في تأسيس صناعة النفط وذلك عن طريق شركة «ستاندرد أويل» التي قام بتأسيسها عام ١٨٧٠ في كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية. وقد تمكن روكفلر من السيطرة على نحو ٩٠ في المئة من صناعة تكرير النفط في الولايات المتحدة بحلول عام ١٨٧٩. ونظراً إلى السيطرة التي تمتع بها روكفلر على صناعة النفط الأمريكية عبر شركة «ستاندرد أويل» العملاقة، أصبح من أثرى أثرياء أمريكا، وللعائلة أيضاً مصالح ضخمة في أكبر بنوك أمريكا والعالم مثل تشيس مانهاتن وجي بي مورغان. (المترجم).

(٢٦) **مذر جونز** (١٨٣٧ ـ ١٩٣٠): اسمها ماري هاري (مذر) جونز، وكانت قد ولدت في كورك، إيرلندا، وهي ناشطة اجتماعية ونقابية أمريكية بارزة حيث ساهمت في تنسيق إضرابات كبرى وفي تأسيس اتحاد عمال العالم. عملت كمعلمة وخياطة، ولكن بعد موت زوجها وأطفالها الأربعة بسبب الحمى الصفراء، وتدمير ورشة عملها في حريق شب في عام ١٨٧١، بدأت العمل الاجتماعي والنقابي. كانت خطيبة ومتحدثة فذة وفعالة جداً. ومن عام ١٨٩٧ (عندما كانت في الستين) اشتهرت باسم مذر جونز. وفي عام ١٩٠٢، وصفت بأنها «أخطر امرأة في أمريكا» لنجاحها في تنظيم إضرابات عمال المناجم وعائلاتهم ضد أصحاب المناجم. في عام ١٩٠٣، غضبت بسبب التراخي في تنفيذ قوانين عمل الأطفال في المناجم ومصانع الحرير في ولاية بنسلفانيا، ولذلك قادت مسيرة للأطفال من فيلادلفيا حتى منزل الرئيس ثيودور روزفلت في نيويورك. تركت مسيرتها ونضالها بصمات على الثقافة الأمريكية. (المترجم).

و١٢ عاماً. لقد حصلت على موافقة أولياء أمور هؤلاء الأطفال وقادتهم في رحلة طويلة إلى نيويورك، حيث كان روزفلت يقضي عطلته الصيفية. لقد وقفوا أمام منزله وهم يرفعون لوحات كتب عليها «نريد وقتاً للعب»! هل تم إنتاج فيلم عن مذر جونز؟ لقد كانت في الـ ٨٣ من العمر عندما قبض عليها الحرس الوطني في ولاية كولورادو وهي تقود مسيرة وألقي بها في السجن، ومع هذا خرجت لتقود النساء في إضراب في مدينة ترينيداد في ولاية كولورادو.

ولكن بالطبع تم إنتاج أفلام سينمائية ووثائقية جيدة، ولكن أنا أتحدث أيضاً عمّا لم تنتجه هوليوود. هناك أفلام وثائقية مدهشة خرجت في السنوات ١٠ ـ ١٥ الأخيرة. ولكن مثل هده الأفلام يجب أن تناضل بقوة لكي تجمع المال ومن ثَمّ تناضل وتناضل لكي يتم توزيعها لكي يشاهدها الناس. هناك نجاحات هائلة في مجال هذه الأفلام مثل فيلم مايكل مور «روجر آند مى» (Roger and Me)، الذي شاهده عشرات الملايين، وهذا أمر مدهش. ولذلك فإن الاحتمال موجود، وربما يجب علينا أن نلعب مع النظام بطريقة مثل حرب العصابات لكي ننجح في إنتاج فيلم يتم عرضه خارج مؤسسة هوليوود. قد ننجح أحياناً في دسّ فكرة معينة وتمريرها على نظام هوليوود في لحظة ننجح فيها على جعلهم ينسون من هم وماذا يعملون من أجله.

لقد شاهدنا أفلاماً عن كريستوفر كولومبس، ولكنني لا أذكر أي فيلم كشف صورة كولومبس الحقيقية، أي رجل تحكمه الأخلاق الرأسمالية المتوحشة. هل ستنتج هوليوود فيلماً عنه يهوِّن من الأخلاق الرأسمالية في قتل الناس من أجل الذهب، وهذا ما كان يفعله كولومبس والإسبانيون؟! يمكن إنتاج فيلم عظيم وأحد الشخصيات المهمة فيه قد يكون الأسقف بارتولوميه دو لاس

كاساس[٢٧] الذي فضح ما فعله كولومبس في مجلدات. لاس كاساس كان شاهد عيان على ما كان يحدث ويمكن أن يكون هناك مشهد في الفيلم عن النقاش العظيم الذي جرى أمام الهيئة الملكية الإسبانية في عام ١٥٥٠. ذلك النقاش العظيم كان بين لاس كاساس وسيبولفيدا[٢٨]، وهو راهب آخر جادل أن الهنود ليسوا بشراً، ولذلك يمكن صنع أي شيء بهم.

هناك أيضاً قصة إبعاد هنود الشيروكي[٢٩] قسراً من الجنوب الشرقي عبر «درب الدموع» [تريل أوف تيرز Trail of Tears][٣٠] بحسب أوامر رئيسنا البطل أندرو جاكسون[٣١]. أنا لم أتعلم في

(٢٧) **بارتولوميه دو لاس كاساس** (١٤٧٤ ـ ١٥٦٦): أسقف ومبشر إسباني، كان لفترة من الوقت أسقفاً على تشياباس في المكسيك، واشتهر بلقب حامي الهنود (السكان الأصليين)، إذ كانت له مساعٍ لرفع الظلم الذي وقع عليهم بعد الغزو الإسباني. (المترجم).

(٢٨) **خوان جينيس دو سيبولفيدا** (Juan Ginés de Sepulveda) (١٤٨٩ ـ ١٥٧٣): فيلسوف ولاهوتي إسباني. وكان خصم بارتولوميه دي لاس كاساس في مناظرة تاريخية بشأن تبرير الغزو الإسباني لجزر الهند. وكان سيبولفيدا المدافع عن حق الإمبراطورية الإسبانية للغزو والاحتلال والتبشير في العالم الجديد. جادل على قاعدة فلسفة القانون الطبيعي. (المترجم).

(٢٩) **هنود الشيروكي**: جزء من شعب أمريكا الأصلي استقر تاريخياً في جنوب شرق الولايات المتحدة (ولايات: جورجيا، كارولينا الشمالية والجنوبية وشرق تينيسي). (المترجم)

(٣٠) **تريل أوف تيرز** (Trail of Tears): أي «درب الدموع»، هو الاسم الذي أطلق على الترحيل القسري لسكان أمريكا الأصليين من قبيلة الشيروكي وغيرهم من القبائل الصغيرة من موطنهم في جنوب شرق الولايات المتحدة في أعقاب صدور قانون «إزالة الهنود» عام ١٨٣٠، إلى مقاطعة هندية (في الأجزاء الشرقية من ولاية أوكلاهوما). عانى النازحون المجاعة والأمراض ومات الآلاف منهم. (المترجم).

(٣١) **أندرو جاكسون** (١٧٦٧ ـ ١٨٤٥): رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع، في الفترة من ١٨٢٩ حتى ١٨٣٧. قام بتأسيس الحزب الديمقراطي. كان مسانداً للعبودية وتهجير السكان الأصليين من أراضيهم وبخاصة في مأساة «درب الدموع» (تريل أوف تيرز). (المترجم).

المدرسة أن جاكسون كان عنصرياً وقاتلاً للهنود، وأنه أيضاً وَقَّعَ على أمر طرد الأمريكان الهنود من جنوب شرق الولايات المتحدة عبر الميسيسيبي. لقد كان ذلك تطهيراً عنصرياً بحجم ضخم: زحف الجيوش الأمريكية عبر القارة لطرد الهنود من أراضيهم وحشرهم في منطقة صغيرة في أوكلاهوما، وهي ما تمت تسميتها لاحقاً بـ «المقاطعة الهندية». ولاحقاً عندما اكتُشف النفط في تلك المقاطعة، تم غزو تلك المنطقة مجدداً وعندها لم يعد اسمها «المقاطعة الهندية» مطلقاً. هذا حقاً وبالفعل تطهير عرقيّ. لا يوجد فيلم يعرض قصة «الشيروكي» الذين هُجروا في «درب الدموع»، أي قصة ١٦,٠٠٠ شخص من الهنود الحمر نزحوا قسراً من بلادهم نحو غرب أمريكا، ما أدى إلى مقتل أربعة آلاف خلال هذا النزوح، بينما كان الجيش الأمريكي يدفعهم بعنف والرؤساء الأمريكان يُثنون على ما كان يجري.

وبالطبع، هناك أيضاً قصة السود في الولايات المتحدة التي أصبحت متوافرة مؤخراً من وجهة نظر هؤلاء الناس السود. لدينا العديد من الأفلام عن حركة الحقوق المدنية حيث شاهدنا مقاطعة حافلات مونتغمري من وجهة نظر الممثلة البيضاء سيسّي سباسيك[٣٢]. كما شاهدنا قصة قتل ٣ نشطاء حقوقيين من العمال في ميسيسيبي في عام ١٩٦٤، من وجهة نظر الـ إف بي آي، والذين كانوا أبطالاً

---

(٣٢) **سيسّي سباسيك** (Sissy Spacek): ممثلة ومغنية أمريكية معاصرة ولدت عام ١٩٤٩. مثلت في فيلم من إنتاج عام ١٩٩٠ بعنوان «المسيرة الطويلة إلى المنزل». وتدور أحداث الفيلم في مدينة مونتغمري، بولاية ألاباما، الولايات المتحدة، أثناء مقاطعة السكان السود حافلات مونتغمري عام ١٩٥٥ بسبب التفرقة العنصرية. أدت سباسيك دور ربة منزل بيضاء تعمل عندها خادمة سوداء وتتعاطف معها لدرجة قيامها بتوصيلها من وإلى العمل حتى لا تسير على رجليها طويلاً، على الرغم من معارضة زوجها وجيرانها. والمؤلف يتهكم هنا ويقصد أن ربة المنزل ساعدت الخادمة السوداء ليس تعاطفاً مع السود ولكن حتى لا تتأخر على عملها في المنزل. (المترجم).

لهذا الفيلم ولكن أي شخص كان في ميسيسيبي عام ١٩٦٤، ومنهم أنا وزوجتي، بكل تأكيد، كنا نعرف أن الـ إف بي آي كانت هي العدو. الـ إف بي آي، كانت تشاهد الناس وهم يُضرَبون بعنف ولكنها كانت صامتة وغائبة عندما احتاجها هؤلاء الناس لحمايتهم من القتل. في هذا الفيلم الهوليوودي أصبحوا [أي إف بي آي] أبطالاً. نحن نريد أن نشاهد قصة حركة الحقوق المدنية كما يرويها الناس السود وقصة ما جرى في الميسيسيبي من وجهة نظر الناشطة الحقوقية السوداء فاني لو هامر(٣٣).

أريد أن أقول شيئاً عن الحرب الأهلية. الحرب الأهلية هي مجدداً واحدة من «الحروب الجيدة»، حيث تم تحرير العبيد خلالها، ولكن الأمر ليس بتلك البساطة. هناك عنصر الطبقة بخصوص من تم تجنيدهم ومن لم يتمّ تجنيدهم، من ربحوا أموالاً هائلة بسبب الحرب الأهلية ومن دفعوا مالاً كبديل عن التجنيد، وما جرى للهنود. عندما تشاهدون أفلاماً وثائقية عن الحرب الأهلية، فإن ما تشاهدونه في الغالب هو مشاهد معارك. تشاهدون ساحات قتال مثل «غينسبرغ» و«فريديريكسبرغ» و«بل رن». أحياناً يقول لي بعض الناس: «أووه، أنت مؤرخ، أنا مهتم جداً بالحرب الأهلية» ثم يواصل ليخبرني عن معركة «فريديريكسبرغ» لأن هذا كل ما يعرفه عن الحرب الأهلية: المعارك أو تحرير السود. ولكن هناك زاوية أخرى أي عنصر آخر يعقّد صورة تلك الحرب الأهلية. خلال الحرب، وبينما كان جنود الاتحاد يقاتلون في الجنوب، كان هناك جزء آخر من جيش الاتحاد يقاتل في الغرب ويدمّر ويحتلّ المستعمرات الهندية. وفي عام

---

(٣٣) **فاني لو هامر** (١٩١٧ ـ ١٩٧٧): ناشطة أمريكية سوداء لأجل حقوق التصويت والحقوق المدنية للسود. (المترجم).

١٦٨٤، أي بعد فترة ليست طويلة بعد إعلان تحرير العبيد، كان الجيش الأمريكي في ولاية كولورادو يهاجم قرية هندية ويقتل مئات الرجال والنساء والأطفال في سانت كريك في واحدة من أسوء المجازر التي تعرّض لها الهنود في التاريخ الأمريكي. هذه المذبحة حدثت خلال الحرب من أجل الحرية. . . خلال سنوات الحرب الأهلية، استولت الولايات المتحدة الأمريكية على أكبر مساحة من الأراضي الهندية في أي مرحلة تاريخية سابقة أو لاحقة.

أعتقد أن هناك الكثير من العمل التاريخي الذي يجب إنجازه والعديد من الأفلام التي ينبغي إنتاجها.

إذا تم إنتاج مثل هذه الأفلام عن الحرب ووصلت إلى الناس، وأيضاً عن صراع الطبقات ومن يسيطر، وأيضاً عن تاريخ الكذب الحكومي والمعاهدات المنتهكة والعنف الرسمي. إذا تم إنتاج أفلام عن هذه الحكايات التاريخية، قد نحصد بالفعل جيلاً جديداً. كأستاذ وكاتب هذا ما يهمني. أنا لست مهتماً بإنتاج كتب فحسب، كما إنني لست مهتماً بإعادة إنتاج فئة بعد فئة من الناس الذين يتعلمون ثم ينجحون في الحياة ليحصلوا على مواقع في المجتمع تعوّدهم على طاعة الحكومة. الشيء الواجب علينا كمبدعين سواء كنا نكتب أو ننتج أفلاماً أو نخرج أفلاماً أو نعزف موسيقى أو نمثِّل أو مهما كان دورنا، يجب أن لا يكون «فقط» أن نجعل الناس يشعرون بالسعادة والإلهام، ولكن أيضاً أن نعلِّم جيلاً جديداً هذا الشيء نفسه: «تغيير العالم».

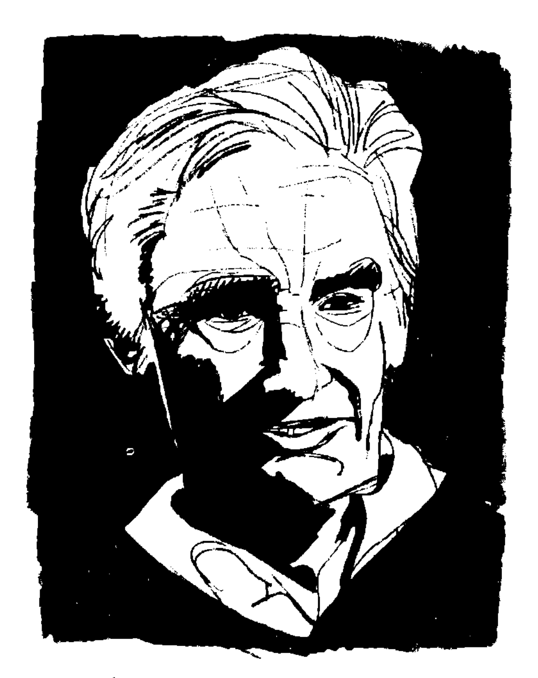
الفصل الرابع

النشرات في أمريكا(*)

«ليس من المطلوب احترام القانون بل احترام الحق».

هنري دافيد ثورو في نشرة «العصيان المدني»

(*) هذه نسخة منقحة من مقالة كتبها زِنْ، لتكون مقدمة لكتاب **أوبن فاير**. **تحرير غريغ روكير وستيوارت ساهولكا** (نيوبريس، دار نيوبريس ١٩٩٣، نيويورك). (المترجم).



هوارد زِنْ (۱۹۲۲ ـ ۲۰۱۰)

ربما كانت أهم مطبوعة في تاريخ الولايات المتحدة ليست كتاباً ولا مجلة دورية ولكن نشرة (Pamphlet)(١). لقد كانت نشرة توماس باين(٢) التي كانت بعنوان **الفطرة السليمة (كومن سينس)**(٣)، والتي

---

(١) نشرة (Pamphlet): ترجمناها لتصبح نشرة بدل كتيب أو كراس. والنشرة هي كتيب (تصغير كتاب) غير مجلد وقد تتكون من ورقة واحدة مطوية إلى نصفين أو ثلثين، أو طية رباعية. ويمكن تدبيسها إذا كانت بحاجة لذلك. (المترجم).

(٢) **توماس باين** (١٧٣٧ ـ ١٨٠٩): مفكر ثوري إنكليزي هاجر إلى أمريكا، ألف نشرة (مطوية) مؤثرة مشهورة بعنوان «الفطرة السليمة» تحرض على استقلال المستعمرات الأمريكية من المملكة المتحدة، وكان لها أثر كبير في التعجيل بإعلان الاستقلال الأمريكي، ولذلك اعتبر أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة. (المترجم).

(٣) **كومن سينس** (Common Sense): هذا المصطلح يمكن ترجمته إلى **الفطرة السليمة** أو **المنطق السليم** أو **الذوق العام** واخترنا استعمال الترجمة الأولى لهذا المصطلح أي **الفطرة السليمة** وهي هنا عنوان نشرة (كتيب) من تأليف توماس باين. وقد نشرت للمرة الأولى باسم مجهول (بقلم رجل إنكليزي) في ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٧٧٦، أثناء الثورة الأمريكية، ولاقت نجاحاً فورياً لتصبح أفضل بست سيلر من أي كتاب في التاريخ الأمريكي. قدمت نشرة الفطرة السليمة للمستوطنين الأمريكيين حجة قوية للتحرر من الحكم الملكي البريطاني في وقت كانت فيه مسألة الاستقلال لم تحسم بعد. كتب باين نشرة «الفطرة السليمة» بأسلوب بسيط وذكي ليفهمها عامة الناس مستعملاً ومبسّطاً الفلسفة والمراجع اللاتينية لعصر التنوير. كما جعل باين نشرة «الفطرة السليمة» تبدو وكأنها خطبة دينية، حيث اعتمد على اقتباسات من الكتاب المقدس لكسب قضيته أمام الناس؛ كما شبه ـ بذكاء ـ الاستقلال عن بريطانيا بانشقاق البروتستانتية عن المسيحية السائدة (أي الكاثوليكية) في القرن السادس عشر، كوسيلة لتقديم الهوية الأمريكية السياسية «الجمهورية» بوضوح ككيان مختلف ومتفرد عن الهوية البريطانية «الملكية». (المترجم).

ظهرت في المستعمرات الإنكليزية في شِمال أمريكا بداية عام ١٧٧٦، لكي تمجِّد فكرة الكثير من المستعمرين: الاستقلال عن إنكلترا.

كلمات باين كانت بسيطة ومنطقه قوياً ورسالته تحريضية: «المجتمع في كل ولاية هو نعمة ولكن الحكومة حتى في أحسن صورها ليست سوى شرّ، والملكية الإنكليزية بعيدة كل البعد على أن تكون في أحسن صورة. ولذلك لماذا نتحمل حكمها؟ أتحدى أكبر مناصر للتصالح مع إنكلترا الملكية أن يقدم فائدة واحدة يمكن أن تجنيها هذه القارة من ارتباطها مع بريطانيا العظمى».

إنكلترا أدخلت المستعمرين في حرب بعد أخرى. لم يكن هناك ميزة اقتصادية عملية للبقاء كمستعمرة إنكليزية. باين فنَّد الأعذار الواحد تلو الآخر، وفي النهاية وصل إلى ذروة جدلية مثيرة قائلاً: «كل شيء صواب ومعقول يناشدنا للانفصال. الدماء المسكوبة وأصوات بكاء الطبيعة تقول: حان وقت الفراق». نشرة «الفطرة السليمة» أصدرت ٢٥ عدداً وباعت مئات الآلاف من النسخ. لقد كانت أفضل من أفضل (بست سيلر) في أمريكا. وإذا اعتبرنا أن سكان البلد كانوا ٣ ملايين نسمة تقريباً في ذلك الوقت، وإذا افترضنا أنه بيع من النشرة مائة ألف نسخة فحسب، فإن هذا الرقم يعادل ٨ ملايين نسخة لنشرة تباع في الولايات المتحدة اليوم.

هذه الفكرة يمكن أن تؤدي إلى فانتازيا. ماذا لو كتب شخص ما نشرة بليغة قوية ومقنعة لشرح لماذا يجب على الشعب الأمريكي أن يعلن استقلاله عن حكومته ويؤسس هيئاته الخاصة لصنع القرار والإدارة لتكون أكثر ديمقراطية واستجابة لحاجاتهم؟ وماذا لو كانت الدولة في حالة من الكساد وتمرّ بأزمة ثقة في القادة السياسيين، وقام ثمانية ملايين مواطن أمريكي بشراء تلك النشرة؟ ألن تصبح هذه قوة توحِّد الشعب للقيام بثورة ثانية أو بتغيير راديكالي مماثل للثورة؟

فكرة النشرات في الغالب قديمة بمثل قدم المطبعة نفسها. وأصبحت ذات شعبية لأنها لبّت حاجة عاجلة. طباعة كتاب تعتبر دائماً مكلفة وتستغرق وقتاً طويلاً نسبياً. الصحف أرخص وأسرع ولكن تأثيرها سريع الزوال. النشرة المجلدة حتى بغلاف ورقي، تجمع فوائد الطريقتين الكتاب والصحيفة: رخيصة وسريعة الإنتاج، وأيضاً تتميز بالبقاء حيث يمكن أن يُحتفظ بها للذكرى والرجوع إليها وتمريرها للآخرين. إضافة إلى ذلك، النشرات مفيدة بصورة خاصة للتعبير عن الأفكار المعارضة، لكونها قصيرة (من ٣ صفحات إلى ١٠٠ صفحة) وسهلة اللغة، بحيث إنها مقروءة بالنسبة إلى الشخص العادي، ويمكن إخفاؤها عن السلطات إذا اقتضت الضرورة.

في منتصف القرن السابع عشر في إنكلترا تم توزيع أفكار جماعة «الحفّارون»[٤] عبر النشرات حيث كانوا يعارضون الملكية الخاصة والاستبداد الحكومي. «الحفارون» حصلوا على هذا اللقب لأنهم كانوا يصرون على أخذ أي أرض «غير مستعملة» حتى لو كانت مملوكة قانوناً لأي شخص إذا كان هناك حاجة لشخص آخر مشرّد ليعيش فيها أو يزرعها. أصدر جيرارد وينستانلي الذي ينتمي إلى الحفارين نشرة جادل من خلالها هذه القضية مع الشعب الإنكليزي، في الوقت الذي كانت تمرّ فيه إنكلترا باضطراب بسبب الثورة البيوريتانية ضد السلطة الملكية.

---

(٤) **الحفارون**: مجموعة من اليساريين البروتستانت الزراعيين الإنكليز بدأها جيرارد وينستانلي في عام ١٦٤٩، والتي أصبحت تعرف باسم الحفارون بسبب طبيعة أنشطتهم. جاء الاسم الأصلي من اعتقادهم بالمساواة الاقتصادية استناداً إلى فقرة في سِفر أعمال الرسل من الكتاب المقدس. وحاول الحفارون إصلاح النظام الاجتماعي القائم بأسلوب الحياة الزراعية على أساس أفكارهم لإيجاد مجتمعات ريفية صغيرة. ويعتبرون واحدة من جماعات المعارضة المعتزلة التي ظهرت في هذا الوقت. (المترجم).

لقد كانت نشرة توماس باين، «الفطرة السليمة»، الأكثر شعبية من حيث القراءة خلال عصر الثورة الأمريكية ولكنها لم تكن النشرة الوحيدة. لقد صدر أكثر من ٤٠٠ نشرة خلال الـ ٢٥ عاماً التي سبقت إعلان الاستقلال، وكانت حافلة بالمجادلات عن النزاع بين المستعمرين والتاج البريطاني ومناقشة مسألة عصيان القانون، والولاء للسلطة، وحقوق وواجبات المواطنين في المجتمع.

وفي وقت مبكر من حكم الحكومة الأمريكية الجديدة، أصدر الكونغرس قانوناً وقّعه الرئيس جون آدمز يسمى بـ «قانون العصيان»[٥]، قضى بتجريم كل من يقول شيئاً «خاطئاً أو فضائحياً أو شرِّيراً» ضد الحكومة أو الكونغرس أو الرئيس بنيَّة «تشويه السمعة». ومن المفارقة أن هذا القانون جاء بعد سبع سنوات من التعديل الأول للدستور[٦]، كما لو كان يريد أن يعلّمنا أهم درس: في العالم الحقيقي، الوعود الدستورية شيء والحقائق السياسية شيء آخر!

وبالرغم من لهجة القانون التهديدية المرعبة (وسجن بعض المعارضين لاحقاً بسببه)، إلا أن زوايا الصحف والنشرات شجبته بشدة. جورج هاي[٧] وهو عضو في برلمان ولاية فرجينيا، أصدر نشرة بعنوان «مقالة عن حرية الصحافة»، وقال فيها بصراحة

---

(٥) **قانون العصيان**: قانون صدر ضمن أربعة مشروعات قوانين وضعها الكونغرس الأمريكي في عام ١٧٩٨، وصادق عليها الرئيس جون آدمز باسم **«قوانين الغرباء والتحريض على الفتنة»**. (المترجم).

(٦) **التعديل الأول للدستور**: أصدره الكونغرس مع ٩ تعديلات أخرى، سميت بـ **وثيقة الحقوق**، التي تمت المصادقة عليها في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩١؛ للمزيد عن **وثيقة الحقوق**، انظر: **الفصل الأول**، الهامش الرقم ١٦ من هذا الكتاب. (المترجم).

(٧) **جورج هاي** (١٧٦٥ ـ ١٨٣٠): محام وقاضٍ فيدرالي في الولايات المتحدة وعضو في المجلس التشريعي لولاية فرجينيا. أصدر نشرة جريئة ومهمة بعنوان «مقالة عن حرية الصحافة». (المترجم).

«يستطيع أي شخص أن يقول أي شيء تمليه عليه جوارحه. . .».

نشرة هاي كانت ملهمة لنشرة ظهرت في عام ١٨٠٠، أي بعد وقت قصير من ظهور نشرة جورج هاي وكانت بعنوان «تقرير عن المجلس التشريعي لولاية فرجينيا»، وكتبها جيمس ماديسون(٨)، ولذلك حصل على اللقب الرفيع «أبو الدستور». وفي التقرير، جادل ماديسون بعبقرية ضد منطق قضاة المحكمة العليا الأمريكية الذين سمحوا بصدور «قانون العصيان».

وفي الفترة نفسها، كانت مظالم الشعب الفرنسي التي أدت إلى ثورتهم العظيمة في عام ١٧٨٩، قد تم التعبير عنها في فرنسا بنشرات (حرفياً، «دفاتر ملاحظات» وهي في الواقع عرائض أو بيانات على شكل نشرات). إحدى النشرات المعنونة «تأملات وطنية» كتبها أستاذ القانون في مدينة رين ووضعت مقاومة تغيير النظام القديم في سياق كوني: «أيها العبيد السود لقد تم تقليصكم إلى ظروف البهائم ولكن هذا ليس ابتكاراً! أطفال ملوك آسيا كان من عادتهم أن الأكبر يشنق أخاه الأصغر ـ ولكن هذا ليس ابتكاراً».

قبل الثورة كانت هناك فئتان اجتماعيتان ذواتا امتيازٍ هما النبلاء

---

(٨) **جيمس ماديسون** (١٧٥١ ـ ١٨٣٦): رابع رئيس للولايات المتحدة بالفترة من ١٨٠٩ ـ ١٨١٧، وعرف بـ أبي الدستور. أدى دوراً مهماً في وضع دستور الولايات المتحدة عام ١٧٨٧، بالتعاون مع ألكسندر هاميلتون وجون جاي، وكان من بين الزعماء الرئيسيين المؤيدين لمغزى الدستور في الصحف الفيدرالية في عام ١٧٨٨. قام بإنشاء الحزب الجمهوري في منتصف التسعينيات من القرن الثامن عشر بالتعاون الوطيد مع توماس جفرسون، وأسس حركة **غراس رووتس** السياسية والتي انتصرت في انتخابات عام ١٨٠٠، والتي يشار إليها بثورة ١٨٠٠. وقام بمضاعفة مساحة الدولة عندما قام بصفقة شراء ولاية لويزيانا من فرنسا أثناء توليه منصب سكرتير دولة. وعندما أصبح رئيساً أعلن الحرب على بريطانيا التي عرفت بـ حرب ١٨١٢، أو الحرب الأمريكية، والتي انتهت عام ١٨١٥، وسادت بعدها في البلاد الروح القومية. (المترجم).

ورجال الدين. والفئة الثالثة ـ باقي الشعب ـ كانت خاضعة للفئتين السابقتين. ولذلك عبرت نشرات الثورة عن وعي طبقي جديد لطبقة جديدة حيث كتب إيمانويل جوزيف سييس، نشرة جريئة بعنوان «ما هي الطبقة الثالثة؟»[٩]، وشرح أن الفئة الثالثة كانت الشعب، وقارن النبلاء ورجال الدين بوباء أو بمرض خبيث يفترس جسم الشخص المريض.

ولكن إعلان الحقوق للرجل الذي وضعته الثورة الفرنسية وتقييده حق التصويت للذكر دافع الضريبة، لم يكن موفياً بوعدها بديمقراطية شاملة. ولذلك كتبت الممثلة الفرنسة أوليمب دو غوج[١٠] في عام ١٧٩١، نشرة بعنوان «إعلان الحقوق للنساء والمواطنة» الذي احتجّت فيه على استثناء النساء من وعود الثورة.

وفي الوقت نفسه، في إنكلترا كانت ماري وولستونكرافت[١١]، تكتب مجادلتها القوية من أجل إحقاق المساواة للمرأة بعنوان «دفاع

---

(٩) **ما هي الطبقة الثالثة؟** هي نشرة كتبها المفكر الفرنسي ورجل الدين القس إيمانويل جوزيف سييس في كانون الثاني/ يناير ١٧٨٩، قبل وقت قصير من اندلاع الثورة الفرنسية. وكان الكتيب استجابة سييس لدعوة وزير مالية لويس السادس عشر، جاك نيكر للمفكرين ليشرحوا ما يجب أن تكون عليه الجمعية العامة، أي البرلمان. (المترجم).

(١٠) **أوليمب دو غوج** (١٧٤٨ ـ ١٧٩٣): كاتبة مسرحية وناشطة سياسية فرنسية، وصلت كتاباتها إلى جمهور كبير وبخاصة نشرتها لعام ١٧٩١، المعنونة بـ «إعلان الحقوق للنساء والمواطنة»، التي تحدث فيها ممارسة سلطة الرجل وفكرة عدم المساواة بين الذكور والإناث. أعدمت بالمقصلة في عهد الإرهاب لمهاجمتها نظام ماكسميليان روبسبير، الذي كان أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، والنصير الرئيس لعهد الإرهاب الذي تلاها. وهو من أشهر السفاحين على وجه الأرض، إذ قتل أكثر من ٦,٠٠٠ شخص في ستة أسابيع فقط. (المترجم).

(١١) **ماري وولستونكرافت** (١٧٥٩ ـ ١٧٩٧): كاتبة وفيلسوفة بريطانية ومناصرة لحقوق المرأة من القرن الثامن عشر. خلال حياتها المهنية القصيرة، كتبت ماري مقالات عن حقوق المرأة وبخاصة مقالتها الشهيرة «دفاع عن حقوق المرأة»، وكتبت روايات، وقصص رحلات، كما كتبت عن تاريخ الثورة الفرنسية، وعن قواعد السلوك، وكتبت أيضاً للأطفال. (المترجم).

عن حقوق المرأة»، والذي قالت فيها أن الرجال أنفسهم يَحُطُون من قدرهم عندما يقللون من قيمة وحقوق المرأة ويجعلونها خاضعة. وفي الولايات المتحدة، شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثورة من الاحتجاجات النسائية. حيث أصبحت النشرات الطريقة الرئيسة للتواصل مع الأمة. الأختان سارة وأنجيلينا غريمكي(١٢)، وهما من عائلة من جنوب كاليفورنيا كانت تملك العبيد، تحولتا إلى داعيتين لتحرير العبيد، وكذلك اهتمتا بالقضايا النسوية، وكانتا أول امرأتين تتحدثان علانية إلى جمهور مختلط. نشرة سارة غريمكي التي بعنوان «رسائل عن ظروف المرأة والمساواة بين الجنسين»، تمت طباعتها في بوسطن في عام ١٨٣٨، وحظيت باهتمام كبير وهذا نموذج مختصر لما جاء فيها:

«الرجل أوقع إصابة بالغة على المرأة عندما كان ينظر إليها بطبيعة حيوانية متجاهلاً كينونتها الفكرية والأخلاقية. كما إن المرأة أوقعت ضرراً بالغاً بنفسها عندما استسلمت لهكذا وضع. . .».

ولاحقاً في ذلك القرن، عندما أصبح موضوع تصويت المرأة قضية، ظهرت نشرة بعنوان «التعامل المنطقي مع معاناة المرأة»، التي أصبحت مرجعاً نموذجياً في مطبوعات الحركة المتعلقة بمعاناة المرأة. كانت مؤلفتها هي الدكتورة ماري كورينا بوتنام جاكوبي(١٣)، والتي كانت أول طبيبة أنثى تنتخب في أكاديمية نيويورك للطب. لقد

---

(١٢) **الأختان غريمكي**: هما سارة (١٧٩٢ ـ ١٨٧٣) وأنجيلينا (١٨٠٥ ـ ١٨٧٩) غريمكي، وهما معلمتان وكاتبتان كانتا تنتميان للكويكرز، وهي مجموعة من المسيحيين البروتستانت. ناصرتا حقوق المرأة وتحرير العبيد. (المترجم).

(١٣) **ماري كورينا بوتنام جاكوبي** (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦): طبيبة وكاتبة أمريكية طالبت بمنح المرأة حق الاقتراع، وكانت كانت أول طبيبة أنثى تنتخب في أكاديمية نيويورك للطب. (المترجم).

أشارت إلى تغير طبيعة «عمل النساء» التي أصبحت غير منزلية وبالتالي عدم وجود منطق في تحكُّم الرجل في ممتلكات ودخل زوجته.

وفي حركة تحرير العبيد في الولايات المتحدة، أصبحت كتابة النشرات سلاحاً أساسياً. إحدى أقوى وأقدم النشرات كانت «التماس ووكر» (Walker's Appeal) التي نشرت في عام ١٨٢٩، لـ ديفيد ووكر[(١٤)]، وهو ابن عبد ولكنه حصل على الحرية في بوسطن وأصبح يعمل في بيع وشراء الملابس. ووكر كان من النوع المحارب وكانت لهجته تحمل شيئاً من لكنة مالكوم إكس:

«دعوا أعداءنا يستمرون في مجازرهم، ويملأون كؤوسهم. لا تحاولوا مطلقاً الحصول على حريتكم أو حقكم الطبيعي من المجرمين والظلمة الذين يستعبدوننا، إلا عندما ترون الطريق واضحاً، وعندما تأتي تلك الساعة وتتحركون فلا تخافوا مطلقاً ولا تجزعوا. . . لقد منحنا الله عينين ويدين ورجلين وبعض المنطق في رؤوسنا مثلهم تماماً. لا يحق لهم بعد الآن استعبادنا كما لا يحق لنا أن نستعبدهم. . . عذاباتنا سوف تنتهي على الرغم من كل هؤلاء الأمريكان الذين تشاهدونهم. هناك يوم لكل كلب ويوم الكلب الأمريكي اقترب».

هذه النشرة أغضبت مُلَّاك العبيد في جنوب أمريكا، إذ عرضت

---

(١٤) **ديفيد ووكر** (١٧٩٦ ـ ١٨٣٠): ناشط أمريكي ـ أفريقي طالب بالإلغاء الفوري للرق، وأصدر عام ١٨٢٩، نشرة مؤثرة بعنوان «التماس ووكر» Walker's Appeal قوض فيها الأيديولوجية العنصرية وشجع السود على الاعتماد على الذات من خلال الاهتمام بالتعليم والتمسك بتعاليم الدين، والقيام بدور نشط في محاربة الظلم الواقع عليهم، وأحرج الأمريكيين البيض بخصوص الحقيقة البدهية في المسيحية، بأن كل الناس خلقوا متساوين. كان مصدر إلهام للعديد من زعماء حركة الحقوق المدنية السود في القرنين التاسع عشر والعشرين مثل مالكوم إكس ومارتن لوثر كينغ وفريدريك دوغلاس، ولكن تجاهله المؤرخون بسبب عنف خطابه. (المترجم).

ولاية جورجيا مكافأة لقتل ديفيد ووكر أو تسليمه حياً. وفي السنة التالية، عثر على ديفيد ووكر ميتاً على عتبة متجره في بوسطن.

لقد كان من الشائع نسخ الخطب والمحاضرات وتوزيعها على شكل نشرات، هنري ديفيد ثورو[١٥]، الذي عبّر عن معارضته للحرب المكسيكية وللعبودية عندما رفض دفع الضرائب ثم ذهب بسبب ذلك إلى السجن، ألقى لاحقاً محاضرة بعنوان «مقاومة الحكومة المدنية». هذه المحاضرة طبعت لاحقاً في نشرة سميت «العصيان المدني»[١٦]، وجاء فيها: «ليس من المطلوب احترام القانون بل احترام الحق».

وفي أواخر القرن التاسع عشر، نظم المزارعون في الولايات المتحدة حركة شعبية للدفاع عن أنفسهم ضد الشركات القوية التي كانت تُفقرهم. قال أحد قادتها في مؤتمر في كانساس إن «وول ستريت يملك البلد». تلك الحركة أسست مكتباً للمحاضرات، وكانت تريد خلق ثقافة مستقلة للمزارعين وتثقيفهم وعائلاتهم في القانون والسياسة والاقتصاد والفلسفة. لقد أنشأت مكتباً للمحاضرات مع ٣٥ ألف محاضر كانوا يسافرون في جميع أنحاء البلد ويوزعون آلاف النشرات للقيام بهذا الدور التثقيفي.

حركة مناهضة الإمبريالية التي برزت في الأمة خلال الحرب الأمريكية ـ الإسبانية واحتلال الفيليبين، أنتجت بدورها الكثير من

---

(١٥) انظر: **الفصل الثاني**، الهامش الرقم ١٨ من هذا الكتاب. (المترجم).

(١٦) **العصيان المدني**: أو (مقاومة الحكومة المدنية)؛ هي نشرة للفيلسوف الأمريكي هنري ديفيد ثورو، ونشرت لأول مرة في عام ١٨٤٩. يجادل ثورو فيها أن الأفراد ينبغي ألّا يسمحوا للحكومات أن تتلف ضمائرهم أو تستولي عليها، وأن عليهم واجباً منع مثل هذا الإذعان الذي يمكّن الحكومة أن تجعلهم وكلاء لظلمها. كان دافع ثورو لكتابة تلك النشرة ـ جزئياً ـ اشمئزازه من الرق والحرب الأمريكية ـ المكسيكية. (المترجم).

النشرات التي كان القصد منها إخبار الشعب الأمريكي عن الفظائع المرتكبة ضد الشعوب في الخارج من أجل إنشاء إمبراطورية أمريكية.

وعلى الرغم من أن حركة العمال خلال هذه الفترة والتي كانت تسيطر على الاتحاد الأمريكي للعمال، كانت حركة محافظة من عدة طرق، إلا أنها عبّرت عن نفسها بقوة ضد التوسع الخارجي. إحدى النشرات كتبها بولتون هال[١٧]؛ أمين خزانة الاتحاد الأمريكي لعمال الموانئ؛ وكان عنوانها «مناشدة سلام للعمال» وأعلنت «إذا وقعت حرب فأنتم أيها العمال سوف تدفعون الضرائب اللازمة وستكون أغلب جثث القتلى منكم، والآخرون سوف يحصلون على المجد والمال».

الاتحاد الراديكالي الأعظم في بداية القرن العشرين، اتحاد عمال العالم الذي كان يمثّل أفقر وأقل العمال الأمريكان مهارة وأكثرهم عرضة للاستغلال، وجد أن النشرة والجريدة هما النموذجان الطبيعيان للتعبير. بعد أن تشكل اتحاد عمال العالم في عام ١٩٠٥، كانت مقدمة دستوره عبارة عن دعوة جريئة للنضال الطبقي وطُبع منها مئات الآلاف من النسخ وتم توزيعها داخل كل أنحاء أمريكا وخارجها. لقد بدأت هكذا: «طبقة العمال وطبقة الرؤساء في العمل لا يوجد أي شيء مشترك بينهما. ولا يمكن أن يكون هناك سلام طالما كان الجوع والفقر يعمّان ملايين العمال، ومن ناحية أخرى، القلّة التي تشكل طبقة الملّاك يملكون كل الأشياء الجميلة في الحياة. يجب أن يستمر الصراع بين هاتين الطبقتين حتى

---

(١٧) **بولتون هال** (١٨٥٤ ـ ١٩٣٨): محامٍ ومؤلِف وناشط ونقابي أمريكي، عمل لمساعدة الفقراء. (المترجم).

يستطيع عمال العالم أن ينظموا أنفسهم في طبقة ويستولوا على الأرض والمصانع التي تنتج ثم يُلغى نظام العمل بأجر. . .».

في العقد الذي سبق الحرب العالمية الأولى، صدرت أعداد هائلة من النشرات خلال نضالات العمال ومعاركهم من أجل حرية التعبير لاتحاد عمال العالم. تلك الحرب أعطت للحكومة العذر المناسب لمقاضاة ثم تدمير ذلك الاتحاد فعلياً، ولكن كانت هناك لحظات ابتهاج تضامنيّ حتى في الهزيمة، وابتهاج في حالة الانتصارات القليلة. إحدى النقاط المجيدة في تاريخ اتحاد عمال العالم، كانت قيادته لإضراب عام ١٩١٢، شارك فيه ٢٥,٠٠٠ عامل نسيج، في لورنس في ولاية ماساتشوستس الأمريكية. «العديد من المضربين كانوا عمالاً مهاجرين أوروبيين جُدُداً ومعظمهم من الأطفال والنساء. وكتبت طبيبة من لورنس في مذكراتها، أن ثلث العمال الرجال والنساء العاملين في مصنع النسيج كانوا يموتون قبل أن يصلوا إلى سن الـ ٢٥ من عمرهم».

رجلان رائعان من إيطاليا أصبحا مهمَّيْن في ذلك الإضراب: جوزيف إيتور، وهو قيادي في الاتحاد وكان يتكلم الإنكليزية والإيطالية والبولندية. وأيضاً كان أرتورو جوفانيتي، وهو شاعر وخطيب، وتولىّ عملية إدارة الإضراب وتزويد المضربين بما يحتاجون. وعندما أصيب أحد المضربين بطلق ناري وتوفّي، ألقي القبض على هذين الرجلين بتهمة التحريض على القتل بالرغم من عدم وجودهما في منطقة الجريمة. وفي محاكمتهما، قالا في إفادتهما النهائية أمام المحلفين قبل الحكم، واللتين تم طبعهما في نشرة. إيتور قال للمحلفين: «**هل يعتقد النائب العام أن المقصلة أو المشنقة قادرين على حلّ خلاف فكريّ؟ إذا استطاعت فكرة أن تعيش، فإنها تعيش لأن التاريخ حكم بأنها صحيحة، أنا أطلب فقط العدالة. الفكرة التي تعتبر**

جريمة اجتماعية في عصر ما، تصبح ديناً في العصر التالي...».

وبعد محاكمة طويلة حبسا خلالها في أقفاص داخل قاعة المحكمة تمّت تبرئتهما. «الفكر الراديكالي» و«كتابة النشرات» كانا دائماً شريكين طبيعيين. وبالطبع فإن أكثر مطبوعة سياسية تأثيراً في العصر الحديث كانت نشرة المانيفيستو الشيوعي ذات المائة صفحة، لكل من كارل ماركس وفريديريك إنغلز. ولذلك نجد أن كل الحركات الراديكالية في العالم من شيوعية وفوضوية واشتراكية، اعتمدت على قوة تأثير النشرات: تحليلات دقيقة، مجادلات عاطفية مؤثرة، ورؤى ملهمة لمجتمعات جديدة.

وضمن النشرات العديدة التي صدرت خلال الثورة الروسية، كانت هناك نشرات مهمة لـ فلاديمير لينين مثل: «ما يجب عمله؟»، «اليسار الشيوعي: اضطراب صبياني»، و«الدولة والثورة»، وغيرها كثير. ولكن يجب أيضاً أن نلاحظ كتابات أليكساندرا كولونتاي(١٨) البلشفية والنسوية. وكامرأة قامت بنقد البيروقراطية السوفياتية من الداخل في نشرة «معارضة العمال» لبعدها عن الشعب؛ فقد كانت تكتب بمزاج مثل روزا لوكسمبرغ التي احتجّت على القيود الموضوعة

---

(١٨) **أليكساندرا كولونتاي** (١٨٧٢ ـ ١٩٥٢): مناضلة شيوعية ثورية روسية من أبرز نساء الحركة الشيوعية الروسية. ولدت لأب يعمل كعقيد في الجيش الروسي بمدينة سان بطرسبرغ وتزوجت المهندس فلاديمير كولونتاي وغادرت روسيا إلى ألمانيا. درست الاقتصاد السياسي في زيوريخ، وأسهمت في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، وتوثقت صلاتها بأبرز قادتها، وبخاصة روزا لكسمبورغ وكلارا زتكن. أما على صعيد السياسة الثورية الروسية، فقد وقفت كولونتاي إلى جانب المناشفة ضد البلاشفة خلال انشقاق الحزب عام ١٩٠٣. ولم تنضمّ إلى البلاشفة إلا خلال الحرب العالمية الأولى. وهي أول امرأة في العالم تشغل منصب وزير عندما عيِّنت على رأس وزارة الشؤون الاجتماعية في أول حكومة بلشفية برئاسة لينين، وقد توفيت كولونتاي في موسكو عام ١٩٥٢، ولها من العمر ٨٠ عاماً. (المترجم).

على الديمقراطية في الدولة السوفياتية الجديدة؛ في نشرتها التي صدرت عام ١٩١٤ بعنوان «امرأة عاملة وأمّ»؛ كتبت كولونتاي بلغة سهلة عن مشاكل النساء في روسيا القيصرية. إحدى عباراتها ضربت عصباً حساساً في الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، عندما تحدث المحافظون المعارضون لحق المرأة في الاختيار مدافعين عن «قيم العائلة». كولونتاي كتبت: «الخداع والنفاق الذي يردده البورجوازيون هو أن المرأة مقدسة لهم. ولكن هل هذا أمر حقيقي؟».

بالنسبة إلى الفوضوية، لا أحد عبّر عن أفكارها بطريقة سهلة وبسيطة وواضحة مثل ألكسندر بيركمان الذي طبعت مقالته «ألف باء الفوضوية» في نشرة رخيصة من قبل مجموعة من الإنكليز التحرريين. كما لا يمكن أن نجد تعبيرات أكثر روعة عن وجهات النظر النسوية أكثر مما قدمت إيما غولدمان، التي أدخلتها خطبها السجن عدة مرات (مثل خطبتها الشهيرة التي سخرت فيها من فكرة الزواج كعقد للتأمين، وقولها إن الزواج والحب لا يوجد بينهما شيء مشترك)، وقد أعيد طبع هذه الخطب في نشرات في السنوات الأولى من القرن العشرين.

نشرات التاريخ تعتبر التعبير المثالي للزواج بين الفن والسياسة ـ لغاتها هي لغة الناس ورخص ثمنها يجعلها متاحة للجميع، ومحتواها ثوري يطالب بتغييرات رئيسة في المجتمع. ومثل أي فن واعٍ فإنه يسمو فوق عالم التجارة ويسمو فوق الفكر المتزمت، ولذلك فإنه ديمقراطي تماماً. وطالما استمر كل من الحرب والظلم، فإن المبدعين سيجدون طرقاً لجعل فنهم يتبع التماس شكسبير في مسرحية **الملك جون**: «أووه إن لساني كان في فم الرعد! ومن ثم سوف أهزّ العالم وبشغف».

الفصل الخامس

«واجب التعبير»
أو دور المبدع في تغيير المجتمع

«الفن هو كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة».

بابلو بيكاسو

«كل الروايات (Fiction)، هي نوع من الكذب؛ أنت تروي حكايات غير صحيحة، لكنها حكايات تتجمع وتتراكم لتتحول - بطريقة ما - إلى حقيقة مهمة جداً».

هوارد زِنْ



هوارد زِنْ (۱۹۲۲ ـ ۲۰۱۰)

هنا حوار زِنْ وتوم يورك في مجلة **ريسونانس** (*Resonance*) حول دور المبدعين في إنقاذ العالم من الحروب.

تقديم المجلة: هوارد زِنْ وتوم يورك[1] لم يتقابلا على الغداء مطلقاً، ولم يلوّحا لبعضها البعض وهما على السجادة الحمراء في المهرجانات، ولم يلتقيا وجهاً لوجه. ولذلك رتبنا ثاني أفضل شيء ممكن لهما: نقاش بين هذين النجمين عبر الهاتف والبريد الإلكتروني. لقد انتهزنْا فرصة صدور كتاب «**قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً**» (دار سفن ستوريز) للبروفيسور هوارد زِنْ، الأستاذ والمؤرخ والكاتب المسرحي الشهير، ومؤلف كتاب **تاريخٌ شعبيٌ للولايات المتحدة: ١٤٩٢ ـ الآن**، كفرصة لمعرفة ما يمكن أن يحدث إذا تناقش هذان الشخصان المرموقان عن دور المبدعين في السياسة. وعلى كل حال، من سيكون أفضل شخص ليناقش هذه القضية مع هوارد زِنْ من المغني والشاعر الغنائي توم يورك قائد فرقة راديوهيد، وبخاصة بعد انقشاع الغبار أخيراً حول العنوان

---

(١) **توماس إدوارد يورك**: مغنٍّ وشاعر غنائي بريطاني من مواليد ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٨. وهو الشاعر والملحن والمطرب الرئيس لفرقة راديوهيد الإنكليزية لموسيقى الروك التي تأسست عام ١٩٨٥. وهو يعزف بشكل رئيس على آلتي الغيتار والبيانو، ولكن أيضاً يلعب الطبول. وفي تموز/ يوليو ٢٠٠٦، أصدر ألبومه المنفرد لأول مرة، **ذا إيريزر** (الممحاة). وقد ذكر اسم يورك بين الشخصيات الأكثر تأثيراً في صناعة الموسيقى، حيث تبوأ المركز رقم ٦ في قائمة مجلة **كيو** لأكثر المغنين تأثيراً. وهو متزوج ولديه ولد وبنت. (المترجم).

المثير لألبومه الأخير، «تحية إلى اللص»؟ وهو أشارة إلى رئيسنا جورج دبليو بوش. يورك لا يزال يصر على أن فرقة «راديوهيد» ليست سياسية بأي شكل من الأشكال المتعمدة. رائع! ولذلك جمعنا زِنْ ويورك في نقاش بواسطة سلسلة من وسائل المقابلات المبتكرة. وكان لدى كل منهما الكثير ليقوله عن الفن والسياسة، ولكن ليس من دون أن يشيرا أيضاً إلى ماركس وبيكاسو ودونا سامر، وفرقة «بابليك إينيمي» الغنائية (Public Enemy). المقابلة أجرتها سارة بيرتون.

بيرتون: بابلو بيكاسو قال ذات مرة: «الفن هو كذبة تجعلنا ندرك الحقيقة». كيف تعلّق على هذا الاقتباس عن دور الفنانين لصنع إلهام لتغيير المجتمع وتوضيح ما ينبغي للعالم أن يكون عليه؟

زِنْ: حسناً، بمعنى معيّن، عندما تصف ما ينبغي للعالم أن يكون عليه، فأنت لا تقول الحقيقة. أنت لا تصف الواقع، بل خيال. أنت تصف المستقبل، شيء طوباوي، وشيء في الخيال. ولذا بمعنى ما، فهي كذبة، إنها كذبة هامة للغاية لكشف الحقيقة. إنها ليست مجرد مسألة يتحدث فيها الفنانون عن المستقبل أو ما يمكن أن تكون عليه الحياة في المستقبل، ما يشكل نوعاً من الكذب. كل الروايات (Fiction)، هي نوع من الكذب؛ أنت تروي حكايات غير صحيحة، لكنها حكايات تتجمع وتتراكم لتتحول ـ بطريقة ما ـ إلى حقيقة مهمة جداً.

يورك: «فوكس نيوز» هي كذبة [يضحك]. شخصٌ ما يجب أن يقول الحقيقة، ولكن هذا ينبغي ألّا يكون عملي. لذا أعتقد أنني سأكون إلى جانب الكذب. وأعتقد أنه لا يستطيع أي فنان أن يدّعي أنه يملك مدخلاً إلى «الحقيقة»، أو النسخة الأصلية لحدث ما. لكن من الواضح أنهم قد يملكون وسائل أفضل قليلاً تحت

تصرّفهم من بقية الناس لأن لديهم أعمالهم الفنية لتفعيل أي أمر يحاولون الكتابة عنه، لديهم الموسيقى.

زِنْ: هذا صحيح، وكما تعلم، فإن الحقيقة في أيدي الفنانين، حتى عندما يفعلون أمراً خيالياً، وحتى عندما يخترعون شيئاً ما، تصبح أمراً قوياً وفعالاً جداً. لأن ما يفعله الفنانون هو تقديم عاطفة ومشاعر ـ يقرضون (Lend) نوعاً من العنصر الروحي للواقع ـ ما يعزّز الحقيقة، ويعطيها قوة لا تحققها عملية السرد البسيط للحقائق.

يورك: هذا قد يسبب قدراً كبيراً من الانزعاج الشديد. إذا كانت هناك برامج سياسية في التلفزيون، ومع ذلك يحتاج الأمر إلى فنان لتنشيط النقاش السياسي في الواقع، فإن هذا يعني حقاً شيئاً مخيفاً جداً عن مستوى النقاش السياسي الذي يحدث على القنوات اليمينية السائدة. أحد الأمور المثيرة للاهتمام هنا هو أن الناس الذين يجب أن يحددوا المستقبل أصبحوا «سياسيين». ولكن الإطار السياسي نفسه ميت جداً ومغلق على نفسه لدرجة تجعل الناس يبحثون عن مصادر أخرى، مثل الفنانين، لأن الفن والموسيقى يسمحان للناس بنوع من الحرية. من الواضح، أن هناك واجباً على الفنانين، لكنه أمر يدين النظام السياسي أن شخصاً مثل زِنْ يعتبر الفنانين كعرّافين، وينظر إليهم بصورة مثالية بصفتهم الأشخاص المسؤولين [عن صنع الإلهام] بالتغيير. أعتقد أن هذا سيكون رائعاً، ولكن السبب لكون الناس يفكرون هكذا هو عدم وجود عنصر آخر من المشاركة في أي مكان.

زِنْ: صحيح، السلطة السياسية تسيطر عليها نخبة الشركات، والفنون هي مشهد لنوع من حرب العصابات، بمعنى أن العصابات في الوضع الشمولي تبحث عن ثغرات وفرص حيث يمكن أن يكون

لها تأثير. **عندما يطاح بالأنظمة الاستبدادية ـ على سبيل المثال، في إسبانيا الفاشية أو الاتحاد السوفياتي ـ تكون المعارضة قد بدأت قبل ذلك في الثقافة، وهي المجال الوحيد الذي يكون للناس فيه بعض الحرية. تبدأ مع الرواية والشعر والموسيقى، لأن هذه الأشكال لا تمثل تهديداً مباشراً للمؤسسة. إنها ممارسات غامضة وغير مباشرة، وبالتالي تراهن المؤسسات أنها لن تؤدي إلى أي شيء يهدد سلطتها، ولكن غالباً ما تخسر السلطات الشمولية تلك المقامرة.** أتذكر أنني كنت في جنوب أفريقيا عام ١٩٨٢، أثناء عصر الفصل العنصري الصلب. كان هناك القليل من الفعاليات الثقافية المعارضة يمكن أن تَحدُث مثل مسرح السوق في جوهانسبرغ، حيث تُقدّم العروض المسرحية منفصلة للبيض/للسود على نحو مذموم، في خضمّ الفصل العنصري. من المستحيل قياس أثر هذه الأشياء لأنها تعمل ببطء شديد على مدى فترة من الزمن مثل الرياح والمياه التي تأكل الصخور. أنا لا أقصد المبالغة في سلطة الفنانين، ولكنها نوع خاص من الطاقة التي تمسّ الناس خارج نطاق السلطة السياسية.

بيرتون: عندما أصبحت فرقة «راديوهيد» معترفاً بها على نطاق واسع، هل خطر على بالك أنك قد تملك القدرة على إلهام هذا النوع من التغيير؟

يورك: شخصياً، أعتقد أنه من الصعب جداً القول إننا نُلهم التغيير. أعتقد ربما لأنه لا يوجد قدرة كبيرة للوصول إلى وسائل الإعلام السائدة وكون الناس لا يفهمون لغة وسائل الإعلام تلك؛ فإذا صنعنا موسيقى بكلمات سياسية، فإن الناس قد تستوعب بعضها، ويلفظونها لاحقاً. العملية تجدد نفسها تماماً. **عموماً، إذا كان الناس على استعداد لرفع رؤوسهم فوق المستوى الذي حددته**

لهم السلطة، مثلما يقول زِنْ، واستيعاب ما يجري حولهم، فإن هذا سيجعلهم يفكرون. أنا لا أرى هذا الأمر كتغيير للأشياء، ولكن مجرد استخدام اللغة والموسيقى كأسلحة لمحاربة تضليل وسائل الإعلام السائدة التي يغلب عليها الطابع اليميني، والموالية للإطار السياسي الذي يعمل لمصلحة الشركات. [ولكن] لمجرد كوننا لا نزال نبيع تسجيلات موسيقية فحسب، لا يعني أن أحداً سيهتم بما نقول. الجانب الفني للأمر مهم لأننا نواصل بيع التسجيلات، والموسيقى سلاح قوي. وبالمثل، لو لم يكن بيكاسو فناناً مذهلاً، فإنه لم يكن سيقدر على فعل مثل هذا التأثير عندما رسم لوحة مثل «غيرنيكا»[٢]. ولذلك في نهاية المطاف، من المثالية التفكير أن الفنانين قادرون على الخروج من قوة وسائل الإعلام السائدة والطريقة التي تسيطر بها على الأمور، والمضيّ لعمل أمورهم الخاصة. ولكن مجدداً، لدينا ترخيص للقيام بذلك لأننا نبيع التسجيلات وهم يريدون المال.

زِنْ: نعم، من المفارقة أن وسائل الإعلام السائدة ضعيفة أمام حافز الربح. ودار هاربر كولينز الضخمة للنشر، ستنشر لكاتب

(٢) **غيرنيكا**: هي لوحة جدارية للفنان بابلو بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣)، تصوِّر فظائع وأهوال الحرب وبخاصة على المدنيين. وقد اكتسب هذا العمل مكانة ضخمة، وأصبح تذكيراً دائماً لمآسي الحرب، ورمزاً لمناهضة الحرب، وتجسيداً للسلام. واستوحاها بيكاسو من قصف طائرات حربية ألمانية وإيطالية لمدينة غيرنيكا في إقليم الباسك لمساندة قوات القوميين الإسبان في ٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٣٧، بغرض الترويع خلال الحرب الأهلية الإسبانية. وكانت حكومة الجمهورية الإسبانية الثانية (١٩٣١ ـ ١٩٣٩) قد كلفت بابلو بيكاسو بإبداع لوحة جدارية لتعرض في الجناح الإسباني في «المعرض الدولي للتقنيات والفنون في الحياة المعاصرة»، الذي أقيم في باريس عام ١٩٣٧. وكان بيكاسو قد انتهى من اللوحة في أواسط حزيران/ يونيو ١٩٣٧. (المترجم).

متمرد مثل مايكل مور لأنه سيجلب لها المال الوفير. وسوف ينشرون أيضاً كتابي **تاريخٌ شعبيٌ للولايات المتحدة: ١٤٩٢ ـ الآن**، على الرغم من كونه يقدم نظرة راديكالية للمجتمع الأمريكي، لأنه أيضاً سيجلب لهم المال الوفير. النظام الرأسمالي يجد صعوبة في قمع الكتّاب الراديكاليين المنشقين الذين يحققون له الربح الماديّ الوفير. عندما كتب دالتون ترامبو روايته **جوني حصل على مسدسه**[٣]، كانت حكاية خيالية، أي إن بطل الرواية ـ بحسب علمنا ـ لم يكن موجوداً في الحياة الحقيقية. لقد كان جندياً في ساحات المعارك في الحرب العالمية الأولى من دون ذراعين وساقين وعينين وأنف، أي لا شيء سوى جذع، وعقل يفكر، وقلب ينبض. لم يكن هذا واقعاً، بل كان خيالاً، أي كان كذبة. ولكن روايته توضّح فكر ذلك الشخص بطريقة تشرح لك حقيقة أهوال حرب. هذا ما يفعل الفن: إنه يأخذ شيئاً ما ليس صحيحاً تماماً، بل مخترع، لكنه يجعلك تفكر في الواقع بطريقة صحيحة لا يمكن لكتاب واقعي غير خيالي (Non-Fiction) بسيط أن ينافسه فيها.

بيرتون: هل هناك كتاب أو عمل فنّي، ربما أغنية، جعلك تدرك شيئاً ثورياً لم تكن ستدركه لوحدك؟

يورك: كل شيء كان يسبب مشاكل لـ جون لينون[٤] أثناء

(٣) انظر: حمد العيسى، **هوارد زِنْ**: **قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً**، الفصل الأول، الهامش رقم ١٤ من هذا الكتاب. (المحرر).

(٤) **جون لينون** (١٩٤٠ ـ ١٩٨٠): مغنٍّ وشاعر وعازف غيتار لفرقة البيتلز. بعد توقف الفرقة عام ١٩٧٠، عاش مع زوجته يوكو أونو في الولايات المتحدة الأمريكية، وأكمل مسيرته الفنية وكان له نشاط سياسي كبير ومؤثر في مناهضة الحروب خاصة حرب فيتنام. اغتاله المتطرف المسيحي مارك تشابمان لأنه قال في حوار صحافي: «أنا أكثر شعبية من يسوع». (المترجم).

السبعينيات. فكرة أغنية «الحرب انتهت». وفي الكلية، كنت مهووساً تماماً مع هذا الشعار المعادي للحرب. ومن ضمن كل الأشياء التي فعلها لينون خارج الموسيقى، كان ذلك الشيء الأكثر إدهاشاً. اعتقدت أنها كانت أشجع شيء، لأنه كان شعاراً مباشراً أصاب الهدف بفاعلية. أيضاً، كانت هناك موسيقى ذلك الوقت، أغاني الاحتجاج في ذلك الوقت كان فيها هذا الإحساس بالخطر مع الخروج من فترة حرب فيتنام. جيل كامل من الناس استيقظوا في السبعينيات يغنّون «انتظروا لحظة، هذا ليس صحيحاً». لا أعرف إذا كان ذلك سيحدث الآن لأنها ـ في حينها ـ وصلت على غفلة إلى وسائل الإعلام، وكانت أمراً وجدوه مربحاً باستخدامه. ولكنني أعتقد أن وسائل الإعلام مسيطر عليها بشكل كبير الآن، ولا تتسامح مع هذا النوع من التدخل [في السياسة]. لو فعل لينون ذلك اليوم فسوف يكبّلونه بالسلاسل ويتخلصون منه في مكان ما. وإذا فعلتُ ذلك أنا، فهذا بالتأكيد الذي سيفعلونه معي. لست متأكداً من أنني أجرؤ على القيام بذلك. هناك عدد كبير جداً من الطرق الذكية والماكرة لتدميرك الآن. وقد تصل إلى نقطة حيث تصبح الموسيقى لا علاقة لها بالسياسة. وتتوقف عن أن تكون هي، وتبدأ لتصبح آلية لوسائل الإعلام بالكامل.

زِنْ: من الصعب على الفنانين الآن التمرد كما كان عليه الوضع في عهد [بوب] ديلان والبيتلز، وذلك لأن سيطرة الحكومة على وسائل الإعلام، خصوصاً الآن في إدارة جورج دبليو بوش، هي سيطرة كاملة تماماً. الوضع أصعب، ولكن ليس مستحيلاً. أرى المغني بروس سبرينغستين، والمغني إيدي فيدر، والمغني آني ديفرانكو، وفرقة ديكسي تشيكس، يتحدّون السلطات ويتحدثون علناً ضد الحرب.

بيرتون: إذاً هل يمكن أن نقول إن هناك مكاناً لكل من الفنانين السياسيين والفنانين غير السياسيين؟ ما رأيك في أهمية كل من الفئتين؟

زِنْ: هناك أنواع متعددة من الفنانين. هناك فنّانون ليس لديهم بالفعل الوعي الاجتماعي، ولا يرون أن هناك علاقة بين الفن والحياة بطريقة تجبر الفنان أن ينظر إلى العالم ككل، ويرى الخطأ ويحاول أن يستخدم فنه أو فنها لتغيير ذلك. هناك فنانون لا يهمهم سوى الترفيه فحسب. يمكنك أن تنظر إلى الترفيه كشيء مفيد، ونحن لا نريد القضاء على الفن الترفيهي، ونصرّ على أن تكون كل الفنون سياسية، ويجب أن تكون ثورية، وقادرة على صنع تحوُّل إيجابي. [لكن] هناك مكان للكوميديا والموسيقى والسيرك والأشياء التي ليس لها تأثير مزعج سوى الترفيه عن الناس ـ لجعل الناس يشعرون بالارتياح، وهو أمر يحتاجه الناس. يحتاجون للإلهاء. ولذلك فهو يخدم غرضاً، ولكن إذا كان هذا هو كل ما يفعله الفنانون، فإن الترفيه الذي كنت تسعى إليه سوف يصبح دائماً. البؤس الذي يعيشه الناس والحروب التي يتعيّن على الناس خوضها، كل هذا سيصبح دائماً. هناك أعداد هائلة من الناس في العالم من الذين تكون حياتهم محدودة. حياة البؤس المطلق، والمرض، والعنف. ومن أجل تغيير ذلك تحتاج إلى فنانين يعون ذلك، ويستخدمون فنهم بطريقة تساعد على تغيير المجتمع. قد لا يستخدمون آلة مباشرة، ولكن سوف يكون لعملهم نوع من التأثير السحري.

يورك: نعم بالضبط، لا أعتقد أننا نعمل في السياسية مطلقاً، بل أعتقد إنني أعي جيداً أمر منصة الخطابة. من الصعب جعل الفن السياسي ينجح. إذا كان كل ما يفعله هو الوجود في حلبات النقاش السياسي، واستخدامه لتلك اللغة، وعموماً، فهي لغة

قبيحة. عندها يصبح هذا الفن السياسي ميتاً تماماً، وبالتأكيد ليس شيئاً جمالياً. السبب الوحيد، كما أعتقد، الذي يجعلنا نقترب منه هو لأنه، مثل أي سبب لشراء الموسيقى، تستوعبه الناس بسهولة: هذه هي الأشياء المحيطة بحياتكم. إذا كنتم تجلسون وتحاولون أن تفعلوا ذلك عمداً، وتحاولون مع هذا تغيير هذا، والقيام بذلك مع ذاك، فإنه لا يعمل مطلقاً. **أعتقد أن أهم معنى للموسيقى هو مشاعر الهروب من الواقع. ولكن هناك طرق مختلفة للهروب. أعتقد أن الهروب هو نوعٌ ما مثل الوصول إلى حفلة مع عشرة آلاف شخص والاستجابة لتلك اللحظة. مشاركة تلك اللحظة، هذا هو الهروب. مهما كان مصدر تلك الموسيقى الأصلي، فهو أمر ثانوي بالنسبة إلى ما يحدث في تلك اللحظة، وكيف ترسلك الموسيقى إلى مكان آخر. هذا هو الشيء المهم.**

زِنْ: صحيح، الكثير من اللغة السياسية قبيح. يجب علينا أن نعتزّ ونقدّر الكتّاب السياسيين من ذوي اللغة الجميلة، مثل سوزانا أروندادي روي[(٥)]، أو باربرا كينغسولفر، بما في ذلك أولئك الكتّاب الذين يكتبون عن السياسة بلغة هزلية مضحكة، مثل مايكل موور. ومن الممكن الرد على مثل هذه القبح بالقول إن الموسيقى ينبغي ألّا تحاول أن تكون سياسية فجّة لأنها سوف تفقد جمالها. ولكن هذا ليس ما يحدث دائماً بالضرورة. أنظروا ـ مثلاً ـ إلى بوب ديلان: أغنية سياسية عنيفة، ولكنها شاعرية ورائعة.

---

(٥) **سوزانا أروندادي روي** (Suzanne Arundhati Roy): هي كاتبة هندية تكتب باللغة الإنكليزية (من مواليد ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١) وناشطة فازت بجائزة بوكر عام ١٩٩٧، عن روايتها **إله الأشياء الصغيرة**. كما إنها أيضاً كاتبة لاثنين من السيناريوهات ومجموعة من المقالات. ومعروف جيداً عن روي أنها ناشطة للعدالة الاجتماعية والاقتصادية. (المترجم).

يورك: جدالي سيكون أنني لا أعتقد أن هناك الكثير من الفن السياسي الحقيقي الذي يمكن أيضاً أن يكون فناً رائعاً. المطلب الأول هو أن يكون فناً جيداً، وإذا حصل هذا، فسيكون هناك شعور بالهروب من الواقع. ولكنني متحيّز. لا أعتقد أن الهروب من الواقع يعني أن الفن يجب أن يكون مملاً على الإطلاق. لم أكن أعتقد مطلقاً أن موسيقى البوب مجرد هروب من نوع رديء مثل القمامة. هناك دائماً شيء من الكآبة فيها، حتى في موسيقى البوب العظيمة. إذا سمعتم «أشعر بالحب» التي كتبتها وغنتها دونا سمر، وتأملتم جيداً في الكلمات وطريقة الغناء، فإنها تشعرك حقاً بالهروب، ولكن هناك كآبة عظيمة فوق جميع الأصوات، والطريقة التي تغنّيها بها. ما بعد هذا الهروب هو تمثيل لما حولك. وإذا أزلت ما حولك، لن يكون لديك الشعور بالسمو، لأنه لن يبقى هناك شعور بالهوية. الهروب هراء في حد ذاته مثل الكثير من الخطاب السياسي في وسائل الإعلام السائدة. إنه يملك لغته الخاصة، ولكنه يشير ـ سُحقاً ـ إلينا جميعنا!

زِنْ: لا أعتقد أن هناك أي شيء خطأ مع الهروب، أو ما يمكن أن نسميه الترفيه الخالص مع عدم وجود رائحة للسياسة فيه. نحن نحتاج إلى ذلك في حياتنا ليس ليستغرق كل حياتنا، ولكن ليعطينا لمحة عن عالم يجب علينا فيه عدم التفكير في السياسة ومعاركها الرهيبة.

بيرتون: هل هناك نموذج واحد من الفن يكون مباشراً بصورة أكبر ومؤثراً بصورة أكثر؟

زِنْ: بالطبع، أشكال الفن المختلفة تملك احتمالات مختلفة لتحويل وعي الناس. الفن [الروائي] الأدبي هو الأكثر مباشرة. والفن الشعري ربما غير مباشر بصورة أكثر من ذلك بقليل.

الموسيقى يمكن أن تكون مباشرة مثل الأغاني المناهضة للحرب خِفية أو ربما أكثر مخاتلة من ذلك. ويمكن أن تكون اللوحات مباشرة سياسياً، مثل اللوحات التي رسمها فرانشيسكو دي غويا[٦] خلال الحرب النابليونية لتبيّن ويلات وفظائع الحرب. يمكن الفن أن يكون مباشراً للغاية، ولكنه يمكن أيضاً أن يكون مخاتلاً، ومع هذا، فإن مجرد قول أي شيء عن حالة الإنسان بأي وسيلة تعبير سيكون له تأثيره على وعي الناس.

يورك: [الأدب] سهل أن يكون مباشراً في استخدامه لأنك تستخدم الكلمات كسلاح بدلاً من أي شيء آخر. الموسيقى هي أكثر صعوبة ـ حاول تسمية فرقة سياسية. مثلاً: فرقة «ديد كينيديز» (Dead Kennedys) الغنائية. «ديد كينيديز» هي فرقة سياسية، لكنهم هزليون أكثر من كونهم سياسيين. لقد كانوا دائماً كذلك، وهذا ما يجعل كل الأشياء التي يتحدثون عنها تسمو. يمكنهم أن يغنوا عن الأشياء الأكثر عنفاً، أشياء لم تسمع عنها مطلقاً سابقاً. لكنها مضحكة وهزلية، ولذلك ينجحون.

زِنْ: في الأصل، نحن نواجه هذه الحالة نفسها في ما يتعلق بالفن والسياسة كما كنا دائماً. هناك خط تاريخي مستمر منذ فترة تاريخية طويلة يعود إلى اليونانيين القدماء، حيث كانت هناك حروب تحارَب، والكتّاب المسرحيون اليونانيون تحدثوا ضد الحرب من خلال شخصياتهم. ويتواصل هذا حتى يومنا هذا. وبالتالي، فإن دور الفنانين في الأساس لم يتغيّر، واعتقد أنه لم يتغير لأننا حتى الآن لم نمر بتغييرات راديكالية في المجتمع؛ فما

(٦) **فرانشيسكو دي غويا** (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨): رسام ونقاش إسباني، عكس فنه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في زمنه. (المترجم).

زال لدينا حرب، وطبقية، واستغلال، وعنصرية. طالما أن هذه الأمور موجودة ـ وهي موجودة منذ وقت طويل ـ فإن أشكال ومضمون الفن سوف تبقى نفسها.

بيرتون: هل يمكن المرء أن يقول إن الفنانين قد أصبحوا أكثر مباشرة مع مرور الوقت في مسعاهم إلى تغيير الأمور؟

زِنْ: لست متأكدا من أن الفنانين أصبحوا أكثر مباشرة. أتأمل القرن التاسع عشر، وأعود إلى ديفيد ثورو عندما كتب عن جون براون، المناضل الأمريكي الثوري في سبيل حرية العبيد، بشكل مباشر جداً، ويمكنني أن أفكر في ميلفيل في منتصف القرن التاسع عشر عندما كتب مباشرة عن العدالة والسلطة. ربما، بمعنى من المعاني، نحن أكثر وعياً بالسياسة اليوم، لأن القضايا هي بمعنىً ما أكبر ـ أي إن الحروب أكبر والعنف أعظم. لقد نما حجم الظلم، ولذلك قد يمكنك القول إن نطاق الفن يجب أن ينمو بالنسبة نفسها. [ولكن في حين] أن حجم الأشياء قد تغير، فإن جودة ونوعية الفن لم تتغير. المتطلبات لما يجب أن يفعله الفن لتغيير المجتمع لا تزال هي نفسها.

بيرتون: لنعد إلى فكرة أن فرقة راديوهيد ليست فرقة سياسية مباشرة. أعرف أنك سئلت هذا السؤال مراراً، ولكن عندما نتأمل في افتراضات الناس عن أن تسمية عنوان ألبوم بـ «تحية إلى لص» يعود مرجعه السياسي لـ جورج دبليو بوش، وتجنّبك أن تعتبرها كفرقة سياسية. لو عاد بك الزمن فهل ستغيّر العنوان؟ هل تفعل؟

يورك: أووه، يا الله، كلّا. لقد كنا خائفين حقاً. كنت مهموماً للغاية عند تنفيذ الألبوم بسبب قلقي من رد الفعل، وخوفي من تعميم هذا التعبير الساخر على جميع أعمالنا التي سنقدمها لاحقاً.

لقد بدت من الخارج مثل عبارة سياسية. ولكن كان سبب شعوري بالثقة من ذلك هو لأن جميع الفريق كان حقاً متحمساً للعمل بغضّ النظر عن العواقب، وهذا هو أساس النجاح، ولذلك فعلنا ذلك. كان من الواضح جداً أن هذا هو ما ينبغي أن نطلق عليه. «تحية إلى اللص»[٧]، هو تعبير عن ابتهاج خاطئ بشكل غير عادي، خاطئ وفي غير محلّه، ولذلك أعتقد أننا كنا على حق.

زِنْ: من الواضح أنها كانت مخاطرة تستحق المجازفة، لأن فكرة أن بوش لص لا تزال قائمة، وسوف تصبح أكثر رسوخاً عندما يصبح أكثر وأكثر عديماً للصدقية. ربما المثال الجيد لأخذ زمامِ المبادرة في مجال الفنون هو في الموسيقى، ارفع رأسك قليلاً للأعلى، وسوف يلحق بك العالم.

بيرتون: إذاً، هل كان رد الفعل أفضل أو أسوأ مما توقّعتم؟

يورك: أفضل، وهو الأمر الذي فاجأنا حقاً، حيث تدرك أن مثل هذه المناقشات، في الواقع، مستمرة في كل وقت مع كل أنواع الناس. وتدرك أن الناس يتحدثون عن هذا القرف طوال الوقت، ولذلك لم يكن بمثابة صدمة كبيرة. لذلك، لم يكن أمراً عجيباً ومستغرباً، وهذا أمر جيد. لقد كان هناك شعور ضخم من الراحة بعدها لأنها، باعتبارها القضية، قد أنجزت. أعتقد أن هذه هي طبيعة الفن الجيد، ينبغي تفسيره جيداً وإساءة تفسيره. النقطة هي، إذا فعلت أي شيء، ثم نجح نوعاً ما، فإنه [يضحك] يبدو بالضبط

---

(٧) «تحية إلى اللص»، هو شعار معاكس لشعار مسيرة «تحية إلى الرئيس» التي قام بها التيار اليميني المحافظ في واشنطن بعد فوز دبليو بوش المشكوك فيه على آل غور في انتخابات عام ٢٠٠٠، وهنا إشارة إلى أن بوش «سرق» نتيجة الانتخابات من منافسه آل غور. (المترجم).

مثل أحد المعلمين الذي درّسني الرسم. هذا لا يعني أنها أغنية استفزازية، بل يعني فقط أن الموسيقى تمتصك وتجعلك تستمع للكلمات بطريقة معينة في حين أنك في بعض الأحيان ربما كنت لا تبالي مطلقاً. لكن الأمر هو نفسه مع مختلف أنواع الموسيقى.

زِنْ: في كثير من الأحيان، الفنانون الذين يدخلون إلى ميدان السياسة، ويدلون ببيانات سياسية يشعرون بعدم الثقة والتقلب لأنهم يعرفون أن فنانين زملاء آخرين والجمهور من خارج عالم الفن سوف ينظرون إليهم شزراً ويقولون: «ينبغي لهم عدم القيام بذلك، ينبغي ألّا يغنّوا عن الحرب، ينبغي أن يعملوا في الترفيه والتسلية». قد لا يمنعهم ذلك من القيام بما يريدون القيام به، ولكن بالعكس ومن ناحية أخرى، سيشعرون بحافز أعظم عندما يسمعون شخصاً يقول لهم: «إن هذا هو الدور العظيم تاريخياً للفنانين». هذه هي الطريقة التي استطاع الفنانون فيها عملَ إلهامٍ للناسْ بضرورة التغيير الاجتماعي. من المهم بالنسبة إلى الكتاٍّب المسرحيين معرفة الكتّاب المسرحيين اليونانيين ومعرفة إبسن وسترينبرغ، ومعرفة الوعي الاجتماعي للكتّاب المسرحيين. ومن المهم للرسامين معرفة بيكاسو السياسي، ومن المهم للمغنين معرفة تاريخ الموسيقى والسياسية ليشعروا بالإلهام منها.

بيرتون: هل تعتبر الفنانين ثوريين؟ أو كما سماهم مارك توين «الوطنيون الحقيقيون»؟

زِنْ: هناك التباس في مصطلحَي «وطني» و«ثوري». ولا يمكنني إلا أن أحدّد تعريفي الشخصي لهما بطريقتي الخاصة. افتراضي هو أن «الثوري» شخص يريد أن تنقلب وتتحول الأمور ليُحدث تغييراً راديكالياً في المجتمع. عندما أفكر في «الثوري»، أفكر في شخص يريد أن يحدث تغييراً راديكالياً في الظروف الحالية التي تسبب

استغلال الناس، والظروف التي تسمح لمجموعة صغيرة من الناس أن تهيمن على الاقتصاد، والظروف التي تسمح لمجموعة صغيرة من الناس باتخاذ قرارات لإرسال الشباب إلى الحرب. لذا، الثوري يريد تغييراً جوهرياً جداً من حالة «الاستغلال والحرب والسيطرة» إلى حالة «مجتمع ديمقراطي حقيقي». **وهكذا عندما نتعلم جميعاً بعضاً من ذلك التاريخ، ونتحدث عن العلاقة بين الفن والتغيير الاجتماعي، فإن ذلك سيشجع الفنانين الذين قد يكونون مترددين حول ما يقومون به، لأن ما يفعلونه يتعارض تماماً مع السائد والعالم التجاري، [وهذا العالم] قد يعاقبهم. إنهم بحاجة إلى كل القوة والتعزيزات والمساندة التي يمكن أن يحصلوا عليها، وعندها يجب على أولئك الذين يناقشون دور الفن في المجتمع أن يحاولوا بأقصى جهدهم توفير ذلك الدعم.**

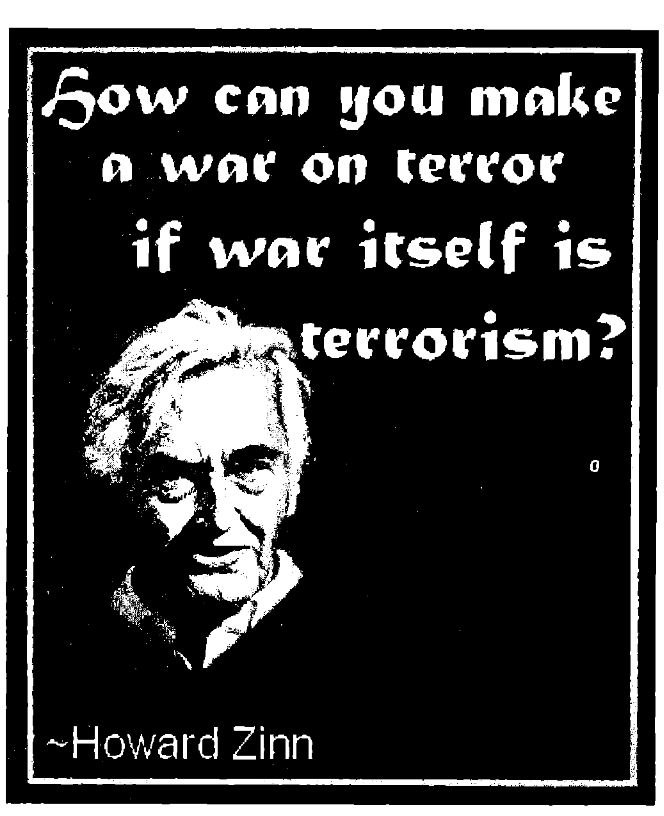
الفصل السادس

كلمات زِنْ الأخيرة
«تغيير عقلية أوباما»(*)

«وهذه مجرد ومضة لما يمكن عمله. على الحكومة أن تلبي احتياجات الشعب. ينبغي للحكومة عدم إعطاء تلك المهمة للشركات والبنوك، لأنهم لا يهتمون باحتياجات الشعب بل كل ما يهمهم هو الربح».

هوارد زِنْ

(*) تعتبر هذه آخر مقالة نشرت لـ هوارد زِنْ قبل وفاته؛ إذ نشرت في أيار/ مايو ٢٠٠٩، في مجلة **ذا بروغريسيف** (التقدمي) الأمريكية. (المترجم).



هوارد زِنْ (۱۹۲۲ ـ ۲۰۱۰)

تغيير عقلية أوباما

نحن مواطنون، وأوباما «سياسي». قد لا تروق لكم هذه الكلمة. ولكن الحقيقة هي أنه «سياسي». كما إنه يتمتع بصفات أخرى أيضاً: إنه حسّاس وذكي وعطوف. ولكنه «سياسي» في المقام الأول وقبل أي شيء آخر!!!

إذا كنت مواطناً، يجب عليك أن تعرف الفرق بين السياسيين وبينك: الفرق بين ما يجب عليهم القيام به، وما يجب عليك القيام به. وهناك أشياء ينبغي عليهم عدم القيام بها، إذا قلت لهم بوضوح إنه ينبغي عليهم عدم القيام بها.

منذ البداية، أحببت أوباما. ولكن المرة الأولى التي فاجأني بأنه «سياسي» كانت في وقت مبكر، عندما كان السيناتور جو ليبرمان، يسعى إلى الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي لفترة أخرى لمقعد في مجلس الشيوخ في عام ٢٠٠٦.

ليبرمان الذي، كما تعلمون، كان ولا يزال داعية وعاشقاً للحرب، وكان يسعى إلى الحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي، وكان خصمه على قائمة الحزب الديمقراطي رَجلاً يدعى تيد لامونت الذي كان يسمى مرشح السلام لأنه ضد فكرة خوض الحرب مهما كانت الظروف. وذهب أوباما إلى ولاية كونيتيكت لدعم ليبرمان ضد لامونت!

لقد فوجئت وشعرت بصدمة. أقول ذلك لكي أؤكد لكم، نعم، كان أوباما ولا يزال سياسياً. ولذلك يجب أن لا ننجرف نحو حالة من اللاتفكير والطاعة والقبول المطلق لما يفعله أوباما.

مهمتنا هي عدم إعطائه شيكاً على بياض، أو أن نكون مجرّد مشجعين وهاتفين له. كان من الجيد له أننا صفقنا وهتفنا له بينما كان يخوض انتخابات الرئاسة، ولكن ليس من المطلوب أن نكون هتّافين ومصفقين الآن بعدما أصبح رئيساً، لأننا نريد للبلد أن يتجاوز كوارث وحروب الماضي القريب. نريد أن نصنع فاصلاً نظيفاً عما كانت عليه البلد في الماضي.

درّسني أستاذ في جامعة كولومبيا يدعى ريتشارد هوفستادتر[1]، وكان قد ألّف كتاباً بعنوان **التراث السياسي الأمريكي**، درس فيه الرؤساء من عهد الآباء المؤسسين حتى فرانكلين روزفلت. كان هناك ليبراليون ومحافظون، وجمهوريون وديمقراطيون. وكانت هناك فروقات بينهم. ولكنه وجد أن من يسمون بـ الليبراليين لم يكونوا بليبراليين حقاً كما يعتقد الناس ـ وأن الفرق بين الليبراليين والمحافظين، وبين الجمهوريين والديمقراطيين، لم يكن فرقاً قطبياً. لقد كان هناك خيط مشترك يمرّ عبر كل التاريخ الأمريكي، وجميع الرؤساء مهما كانت توجهاتهم ـ جمهوريين/ ديمقراطيين أو ليبراليين/ محافظين ـ يتبعون هذا الخيط المشترك نفسه.

---

(١) **ريتشارد هوفستادتر** (١٩١٦- ١٩٧٠): مؤرخ أمريكي عمل كأستاذ للتاريخ الأمريكي في جامعة كولومبيا العريقة. أهم أعماله هي **الداروينية الاجتماعية في الفكر الأمريكي ١٨٦٠-١٩١٥** (عام ١٩٤٤)؛ **التراث السياسي الأمريكي** (عام ١٩٤٨)؛ **عصر الإصلاح** (عام ١٩٥٥)؛ **مناهضة الفكر في الحياة الأمريكية** (عام ١٩٦٣)، إضافة إلى مقالات تم جمعها في كتاب **البارانويا في السياسة الأمريكية** (عام ١٩٦٤). وقد حصل على جائزة بوليتزر مرتين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٤. (المترجم).

ويتكوّن هذا الخيط المشترك من عنصرين. **الأول، الوطنية، والثاني، الرأسمالية.** وأوباما ليس خالياً من ذلك التراث القوي المزدوج.

ويمكننا أن نرى ذلك في السياسات التي تم الإعلان عنها حتى الآن، على الرغم من أنه لم يمضِ على رئاسته سوى وقت قصير.

قد يقول بعض الناس: «حسناً، ماذا تتوقعون؟». والجواب هو أننا نتوقع الكثير.

وسيقول الناس: «ماذا، هل أنتم حالمون؟!». والجواب هو نعم، نحن نحلم. نريد كل شيء جيد. نريد عالماً يسوده السلام. نريد عالم العدالة والمساواة. لا نريد الحرب، ولا نريد الرأسمالية. نريد مجتمعاً أخلاقياً. ومن الأفضل أن نتمسك بهذا الحلم بقوة، لأننا إذا لم نفعل ذلك، فسوف نغرق أكثر وأكثر نحو القاع، أي هذه الحقيقة التي لدينا، ونحن لا نريد ذلك.

يجب أن نكون حذرين عندما نسمع عن أمجاد نظام السوق. نظام السوق هو ما كنا عليه. يقولون: دعوا السوق يقرر، يجب على الحكومة عدم توفير الرعاية الصحية المجانية، اتركوا السوق يقرر. وهذا ما كان السوق يقوم به ـ وهذا هو السبب أن ٤٨ مليون مواطن أمريكي محرومين من الرعاية الصحية. لقد قرر السوق ذلك. اتركوا الأمور للسوق، ولذلك هناك مليونا مواطن أمريكي مشرّدين (Homeless) بلا مأوى. اتركوا الأمور للسوق، وهناك الملايين والملايين من الناس الذين لا يستطيعون دفع إيجار مساكنهم. اتركوا الأمور للسوق، وهناك ٣٥ مليون مواطن أمريكي من الذين يتضورون جوعاً.

يجب عدم ترك الأمور للسوق. إذا كنت تواجه أزمة اقتصادية

مثل التي نواجهها الآن، يجب ألّا تفعل ما فعلت في الماضي. يجب عدم سكب الأموال في محَافظ أصحاب المراكز العليا في البلاد، وفي البنوك والشركات، ومن ثم تأمل ـ بطريقة سحرية ـ أن تصل بعض تلك الأموال لمن يعيشون في القاع.

ماذا كان أول الأشياء الذي قامت به إدارة دبليو بوش، عندما رأت أن الاقتصاد كان في ورطة؟ لقد وضعت حزمة إنقاذ حجمها ٧٠٠ مليار دولار، ولكن من هم الذين أعطيناهم هذه الـ ٧٠٠ مليار دولار؟ لقد قدّمها بوش إلى المؤسسات المالية التي تسببت في هذه الأزمة!

لقد جرى هذا عندما كانت تجري حملة انتخابات الرئاسة، وتألمت أن أرى أوباما يقف هناك، ويؤيد خطة الإنقاذ الضخمة لهذه الشركات.

كان ينبغي أن يبادر أوباما قائلاً: مهلاً، انتظروا. البنوك ليست فقيرة. الرؤساء التنفيذيون للبنوك ليسوا فقراء. ولكنْ هناك أناسٌ عاطلون عن العمل. هناك أشخاص لا يستطيعون سداد الرهون العقارية لمساكنهم. دعونا نعطي حزمة الـ ٧٠٠ مليار دولار مباشرة إلى الناس الذين هم بحاجة إليها بدلاً من البنوك التي سبّبت الأزمة. بل دعونا نعطي هؤلاء الناس المحتاجين تريليون دولار، دعونا نعطيهم ٢ تريليون دولار.

دعونا نغتنم هذه الأموال ونعطيها مباشرة إلى الناس الذين في حاجة إليها. نعطيها للأشخاص الذين لا يمكنهم سداد الرهون العقارية. ينبغي ألّا يطرد أحد من مسكنه ويجلس مع أمتعته في الشارع.

أوباما يريد أن ينفق ربما تريليون أكثر على البنوك. ومثل

بوش، فإنه لا يعطيها مباشرة لأصحاب المنازل الذين لا يستطيعون سداد الرهون العقارية. وبخلاف الجمهوريين، فإن أوباما يريد أيضاً أن ينفق ٨٠٠ مليار دولار لخطته لتحفيز الاقتصاد. وهو أمر جيد، فكرة وجود حافز جيدة. ولكن إذا فحصت الخطة بدقة، ستكتشف أن الكثير منها يمرّ عبر السوق، أي من خلال الشركات.

الخطة تعطي إعفاءات ضريبية للشركات، على أمل أنها سوف توظف المزيد من الناس. كلّا، إذا كان الناس بحاجة إلى فرص عمل، لا تعطي المال للشركات، على أمل أن ذلك ربما سيخلق فرص عمل. يجب أن توفر الحكومة العمل للناس.

الكثير من الناس لا يعرفون تاريخ «الصفقة الجديدة»(٢) التي جرت في الثلاثينيات. «الصفقة الجديدة» لم تذهب بعيداً بما فيه الكفاية، ولكن ـ على الرغم من هذا القصور ـ كان فيها بعض الأفكار الجيدة جداً. وكان السبب في أن «الصفقة الجديدة» جاءت بهذه الأفكار الجيدة لأنه كان في هذا البلد هيجان كبير وكان يجب على روزفلت الرد. فماذا فعل؟ أخذ مليارات من الدولارات وقال إن الحكومة ستوظف الناس. هل أنت عاطل؟ تقدَّم، فالحكومة لديها عمل لك.

ونتيجة لذلك، تم إنجاز الكثير من العمل الرائع جداً في جميع أنحاء البلاد. وتم وضع عدة ملايين من الشباب في فيلق

---

(٢) **الصفقة الجديدة** (The New Deal): هي سلسلة من البرامج الاقتصادية التي نفذتها حكومة الولايات المتحدة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٦، بعدما صدرت من قبل الكونغرس الأمريكي خلال الفترة الأولى من حكم الرئيس فرانكلين روزفلت. كانت تلك البرامج ردود روزفلت على الكساد الاقتصادي العظيم، وركزت على: الإغاثة والإنعاش والإصلاح؛ أي إغاثة العاطلين عن العمل والفقراء، وإنعاش الاقتصاد ليعود إلى مستويات طبيعية، وإصلاح النظام المالي لمنع تكرار حدوث الكساد. (المترجم).

الخدمة المدنية. ذهبوا إلى العمل في جميع أنحاء البلاد لبناء الجسور والطرق والملاعب، وفعلوا أشياء رائعة.

وأنشأت الحكومة برنامجاً فيدرالياً للفنون. لم تنتظر الحكومة وقتها أن تقرر الأسواق ذلك. وضعت الحكومة برنامجاً ووظفت آلاف الفنانين العاطلين عن العمل: من كتّاب ومسرحيين وممثلين وموسيقيين ورسامين ونحاتين، ماذا كانت النتيجة؟ لقد كانت النتيجة إنتاج ٢٠,٠٠٠ عملٍ فنيٍّ. اليوم، في جميع أنحاء البلاد، هناك آلاف من الجداريات التي رسمها الناس في «برنامج إدارة المشاريع»[٣] التابع لـ «الصفقة الجديدة». وعرضت مسرحيات في جميع أنحاء البلاد بأسعار رخيصة جداً، حتى إن الناس الذين لم يشاهدوا مسرحية في حياتهم كانوا قادرين على تحمّل نفقات الحضور.

وهذه مجرّد ومضة لما يمكّن عمله. على الحكومة أن تلبّي احتياجات الشعب. لا ينبغي للحكومة إعطاء تلك المهمة للشركات والبنوك، لأنهم لا يهتمون باحتياجات الشعب بل كل ما يهمهم هو الربح.

أثناء حملته الانتخابية للرئاسة، قال أوباما شيئاً أدهشني جداً لأنه بدا لي قولاً حكيماً، وعندما يقول مثل هؤلاء الناس شيئاً حكيماً جداً، يجب أن تتذكره دائماً، لأنهم قد لا يتمسكون به لاحقاً. وربما نجد من الحكمة تذكيرهم بذلك الأمر الحكيم الذي قالوه سابقاً.

كان أوباما يتحدث عن الحرب في العراق، وقال: «ليس

(٣) برنامج إدارة المشاريع (تغيّر اسمه عام ١٩٣٥، ليصبح إدارة مشاريع الأشغال)، كان أكبر وأكثر وكالة طموحاً تابعة لـ «الصفقة الجديدة». وكان يوظف ملايين من العمال غير المهرة لتنفيذ مشاريع الأشغال العامة بما في ذلك تشييد المباني العامة والطرق، كما كان ينفذ مشاريع فنون عديدة في الدراما والإعلام والأدب. (المترجم).

علينا فقط أن نخرج من العراق». لقد قال «نخرج من العراق»، ويجب علينا ألا ننسى ذلك. يجب علينا أن نواصل تذكيره: «نخرج من العراق»، «نخرج من العراق»، «نخرج من العراق» ـ ليس العام المقبل، وليس بعد سنتين، ولكن «نخرج من العراق» الآن!

ولكن استمعوا إلى الجزء الثاني من مقولته أيضاً. كانت مقولته الكاملة: «ليس علينا فقط أن نخرج من العراق، بل علينا أن نخرج من العقلية التي أدت بنا إلى غزو العراق». ولكن ما هي العقلية التي جعلتنا نغزو العراق؟!

إنها العقلية التي تقول إن القوة يمكن أن تحلّ المشكلة. وبعبارة أخرى، العنف والحرب والطائرات القاذفة للقنابل، يمكنها أن تجلب الديمقراطية والحرية للشعوب.

إنها العقلية التي تقول إن أمريكا لديها الحق الإلهي لغزو بلدان أخرى لتقدم خدمة لصالح شعوب تلك الدول. سوف نجلب الحضارة إلى المكسيكيين في عام ١٨٤٦؛ سوف نجلب الحرية للكوبيين في عام ١٨٩٨؛ سوف نجلب الديمقراطية للفيليبنيين في عام ١٩٠٠. وتعلمون ـ بالطبع ـ مدى نجاحنا الباهر في جلب الديمقراطية لجميع أنحاء العالم!

ولكن أوباما لم يخرج من هذه العقلية التبشيرية العسكرية. إنه يتحدث عن إرسال عشرات الآلاف من القوات إلى أفغانستان.

أوباما رجل ذكي جداً، وبالتأكيد فلا بد أنه يعرف بعضاً من التاريخ. لا يجب عليك معرفة الكثير من التاريخ لتعرف أن تاريخ أفغانستان يتضمن عقوداً وعقوداً وعقوداً من محاولات القوى الغربية لفرض إرادتها على أفغانستان بالقوة: الإنكليز، الروس، والآن الأمريكان. ماذا كان نتيجة ذلك؟ كانت النتيجة خراب البلد للأسف!!

هذه هي العقلية التي ترسل ٢١,٠٠٠ جنديٍّ إضافيّ إلى أفغانستان، والتي تقول، كما قال أوباما، إنه من الواجب أن يكون لدينا جيش أكبر. لقد حزنت عندما قال أوباما ذلك. لماذا نحتاج جيشاً أكبر؟ لدينا ميزانية عسكرية ضخمة. هل تحدّث أوباما بشأن خفض الميزانية العسكرية إلى النصف أو أقل؟ كلّا!

لدينا قواعد عسكرية في أكثر من مائة دولة. لدينا ١٤ قاعدة عسكرية في مجموعة جزر أوكيناوا[٤] اليابانية وحدها. من يحتاجنا هناك؟ الحكومات تحصل على الفوائد. ولكن الناس لا يريدوننا حقاً هناك. لقد حدثت تظاهرات ضخمة في ايطاليا ضد إقامة قاعدة عسكرية أمريكية. وحدثت تظاهرات كبيرة في كوريا الجنوبية وفي أوكيناوا.

كان واحداً من الأعمال الأولى لإدارة أوباما هو إرسال صواريخ بريداتور لتضرب باكستان. قُتل أناس، وكان العذر «أووه، لقد كنا دقيقين لأن لدينا أحدث المعدات، ويمكننا أن نضرب أي هدف ونصيبه بدقة».

هذه هي عقلية الافتتان التكنولوجي. نعم، يمكنهم في الواقع أن يقرروا قصف هذا المنزل بالضبط، ولكن هناك مشكلة واحدة: إنهم لا يعرفون سكان المنزل! يمكنهم قصف سيارة محددة بصاروخ من مسافة بعيدة، ولكنهم لا يعرفون من يركب داخل السيارة.

---

(٤) هناك حركة قوية في أوساط سكان جزر أوكيناوا اليابانية، ضد الوجود العسكري الأمريكي في أوكيناوا، وخصوصاً بعد حالات الاغتصاب العديدة التي حوكم بسببها الجنود الأمريكيون. وكانت أشهر جريمة اغتصاب قد حدثت في ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥، عندما قام ثلاثة من الجنود الأمريكيين في البحرية الأمريكية بخطف واغتصاب فتاة يابانية عمرها ١٢ عاماً تدرس في الصف السادس الابتدائي. حوكم الجنود الثلاثة وبدل الحكم عليهم بالسجن ١٠ سنوات بحسب القانون، حصلوا على أحكام مخففة بالسجن ٦ ـ ٧ سنوات ثم أطلق سراحهم وطردوا من الجيش. (المترجم).

ولاحقاً بعد أن يتم إخراج الجثث من السيارة ومن المنزل، سيقولون لك: «حسناً، لقد كان هناك ثلاثة من الإرهابيين المشتبه بهم في ذلك المنزل، ونعم، هناك سبعة أشخاص آخرين قتلوا، بينهم طفلان، ولكننا قتلنا الإرهابيين المشتبه بهم»! لكن لاحظوا كلمة «المشتبه بهم»؛ فالحقيقة هي أنهم لا يعرفون من هم الإرهابيين.

لذا، نعم، علينا أن نخرج من العقلية التي أدخلتنا في العراق، ولكن قبل ذلك علينا تحديد ماهية هذه العقلية. ويجب إجبار أوباما على نبذ هذه العقلية من قِبَل الناس الذين انتخبوه، ومن قبل الناس المتحمسين له. يجب علينا أن نقول له: «كلا، أنت على الطريق الخطأ مع هذه الفكرة العسكرية لاستخدام القوة لتحقيق أشياء في العالم. لا يمكن تحقيق أي شيء عبر الحرب، وسوف تبقى أمريكا بلداً مكروهاً في العالم».

لقد تحدّث أوباما عن رؤيته لهذا البلد. نعم، يجب أن يكون لديه رؤية، والآن أريد أن أقول لأوباما ما ينبغي أن تكون رؤيته. ينبغي أن تكون الرؤية لأمة تصبح سمعتها جيدة في جميع أنحاء العالم. لن أقول حتى «أمة محبوبة» لأن ذلك سيستغرق بعض الوقت. أمة لا يشعرون بالخوف منها، ولا يكرهونها بصورة دائمة كما نحن عليه الآن، ولكن أمة يُنظر إليها بوصفها مسالمة، وذلك لأننا سحبنا قواعدنا العسكرية من جميع هذه البلدان. ينبغي عدم إنفاق مئات المليارات من الدولارات على الميزانية العسكرية. خذ جميع الأموال المخصصة للقواعد العسكرية والميزانية العسكرية ـ وهذا جزء من «التحرر من عقلية الماضي» ـ ويمكنك استخدام هذه الأموال لتقديم الرعاية الصحية المجانية للجميع، وضمان فرص العمل لجميع العاطلين، ودفع إيجار مساكن الذين لا يستطيعون دفع الإيجار، وبناء مراكز رعاية الطفل.

دعونا نستخدم المال لمساعدة الآخرين في مختلف أنحاء العالم، بدلاً من إرسال قاذفات القنابل إليهم. عندما تحدث الكوارث، فإن المناطق المنكوبة تحتاج إلى طائرات هليكوبتر لنقل الناس من الفيضانات والخروج من تلك المناطق. يحتاجون طائرات هليكوبتر لإنقاذ حياة الناس، وطائرات الهليكوبتر موجودة في منطقة الشرق الأوسط تقصف وتقتل الناس!

المطلوب لتغيير العقلية هو «تحول كامل». نريد بلداً يستخدم موارده وثروته وقوته لمساعدة الناس، وليس لإلحاق الضرر بهم. هذا ما نحتاجه. هذه رؤية تساعدنا على الحياة. لا ينبغي لنا أن نرضى بسهولة ونقول «حسناً، أعطوه فرصة لأن أوباما يستحق الاحترام». لكنكم لا تحترمون أحداً.. عندما تعطونه شيكاً على بياض. تحترم شخصاً ما عند تعامله بمساواة معك، وكشخص يمكنك التحدث معه، وكشخص سوف يستمع إليك.

ولكن أوباما ليس سياسياً فحسب. الأسوأ من ذلك، أنه محاط بسياسيين خطرين. ومنهم من اختاره أوباما بنفسه. اختار وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون، واختار المستشار الاقتصادي لورانس سمرز، واختار أشخاصاً لا تظهر عليهم أي رغبة «للخروج من عقلية الماضي».

نحن مواطنون. يجب علينا أن لا نضع أنفسنا في موقفهم وننظر إلى العالم من خلال عيونهم ونقول: «حسناً، لابد من تسوية، علينا أن نفعل هذا لأسباب سياسية». كلا، يجب أن نجهر بآرائنا بجرأة. هذا هو الموقف الذي كان فيه دعاة تحرير العبيد قبل الحرب الأهلية، لقد قال الناس: «حسناً، ينبغي عليكم النظر إلى الأمر من وجهة نظر لينكون». لينكون لم يكن يعتقد أن أهم أولوياته هي إلغاء العبودية. لكن الحركة المناهضة للعبودية كانت تعتقد أنه أهم

الأولويات، وقال دعاة تحرير العبيد «لن نضع أنفسنا في موقف لينكون. سوف نعبّر عن موقفنا، وسوف نعبّر عنه بقوة بحيث سيضطر لينكون للاستماع إلينا»

ونمت الحركة المناهضة للعبودية بشكل أكبر وأكبر، لتصبح كبيرة وقوية بما فيه الكفاية كي يستمع إليها لينكون. نعم، هذه هي الطريقة التي حقّقنا عبرها إعلان تحرير العبيد وتعديلات الدستور الرقم ١٣، ١٤، و١٥.

هذه حكاية هذا البلد. تم إحراز تقدم، **وتمّ قلب أي نوع من الظلم لأن الناس تصرّفوا كمواطنين مسؤولين عن مصلحة بلدهم، وليس كسياسيين. لم يقوموا بالمواء فحسب، بل عملوا، ونظموا، لقد شاغبوا عندما كان ذلك ضرورياً لجذب أنظار الناس الذين في السلطة. وهذا ما يتعين علينا القيام به اليوم.**

الفصل السابع

حوار مع هوارد زِنْ:
«تقهقر الإمبراطورية الأمريكية»

«إنني أعتقد أن 11 أيلول/ سبتمبر قد يمثل بداية انحلال الإمبراطورية الأمريكية. وهذا يعني أن الحدث ذاته، الذي بلور المساندة الشعبية للحرب فورياً، قد يمثل في المدى الطويل ـ وأنا لا أدري كم سيستغرق ذلك ـ بداية إنهاك وتفتت الإمبراطورية الأمريكية».

هَوارد زِنْ



هوارد زِنْ (۱۹۲۲ ـ ۲۰۱۰)

تقديم: هنا حوار للصحافي الأمريكي توم ديسباتش مع هوارد زِنْ، حيث قابله في ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، وحاوره في مواضيع سياسيّة وتاريخيّة مهمة تحت عنوان: «تقهقر الإمبراطورية الأمريكية»[١]، نُشر الحوار على موقع توم ديسباتش، هذا الموقع الذي يصفه توم بأنه يقدم مادة صحافية مضادة لـ «سُمِّ» الإعلام الأمريكي السائد! وفي ما يلي نص الحوار:

تقهقر الإمبراطورية الأمريكية

تقديم توم ديسباتش: إنه طويل ونحيل وشعره أبيض كثيف. عمل قاذفَ قنابل من الطائرة في الحرب العالمية ضد الفاشية. مناهض محنَّك ضد حروب أمريكا منذ ذلك الحين. اشتهر كمؤلف للكتاب غير المسبوق **تاريخٌ شعبيٌّ للولايات المتحدة**. خبير بأصوات المقاومة غير المتوقعة التي جعلت نفسها مسموعة عبر التاريخ. في الثالثة والثمانين، بالرغم من أنه يبدو أصغر بعقد من الزمن! هو من نتاج قرن عاصف، ولكن ليس ثمة شيء من الماضي فيه. صوته هادئ، يضحك بخفوت أحياناً ساخراً من ملاحظاته. من وقت إلى آخر، إذا أعجبته فكرة، يضيء وجهه المجعّد بابتسامة سعيدة.. يبدو كطفل!

جلسنا إلى طاولة خلفية في مدخل مقهى صغير صباح يوم

(١) انظر: الحوار بين توم ديسباتش وهوارد زِنْ، على موقع توم ديسباتش التالي: <http://www.tomdispatch.com>. (المترجم).

عطلة. كان أمامه كرواسان وقهوة. اقترحت عليه أن نبدأ بعد الفطور، لكنه أكد لي أنه لا يوجد أي تعارض بين الأكل والكلام. ولذلك، بدأت بتجهيز جهاز التسجيل. وفي هذه الأثناء، قام بإبعاد الكرواسان (التي أكل نصفها) ولم يعد إليها مطلقاً! ثم بدأنا الحوار.

● ديسباتش: أنت وأنتوني أرنو أصدرتما توّاً كتاباً جديداً «أصوات تاريخ شعبي للولايات المتحدة»، مبرزين أصوات مقاومة أمريكية منذ لحظاتنا الأولى حتى ليلة أمس. الآن.. لدينا صوت مقاومة جديد ومدهش.. سيندي شيهان[٢]، أنا أتساءل عن رأيك فيها؟

زن: دائماً حركة الاحتجاج التي تكون قائمة ـ والحركة الحاليّة المناهضة للحرب بدأت قبل حرب العراق ـ تحصل على زخم خاص. . شرارة معينة. . من عصيان شخص مفرد. أنا أفكر ـ مثلاً ـ بـ «روزا باركس»[٣] ومعنى ما فعلته.

● ديسباتش: هل تتذكر من تاريخنا أشخاصاً مثل سيندي شيهان قادوا حركات مشابهة؟

زن: لم يكن هناك شخص واحد بمفرده في حركة مناهضة

---

(٢) **سيندي شيهان**، امرأة أمريكية بيضاء من ولاية كاليفورنيا ولدت عام ١٩٥٧. قُتل ابنها المجند في حرب العراق. أصبحت ناشطة شهيرة في حركة مناهضة حرب العراق. (المترجم).

(٣) **روزا باركس** (١٩١٣ ـ ٢٠٠٥)، امرأة سوداء من ولاية ألاباما. أمَرَها سائق باص في عام ١٩٥٥، أن تترك مقعدها لرجل أبيض ولكنها رفضت. قُبض عليها، وُحوكمت، ووجدت نفسها مذنبة بتهمة «التمرد المخلّ بالنظام ومخالفة القانون البلدي». فُرض عليها دفع غرامة مقدارها ١٤ دولاراً، لكنها رفضت، واستأنفت الحكم على أساس أنه عنصري ومخالف للدستور. كانت هذه الحادثة هي الشرارة التي أججت حركة الحقوق المدنية بقيادة الدكتور مارتن لوثر كينغ، حتى كُتب لها النجاح بعد سنوات. نالت قبل وفاتها أرفع الأوسمة، وأصبحت أسطورة خالدة في التاريخ والثقافة الأمريكيتين. (المترجم).

حرب فيتنام. ولكن عندما أفكر في الماضي البعيد.. في حركة مناهضة الرِّق.. «فريدريك دوغلاس»[٤] كان شخصاً مهماً في هذا الخصوص. عندما أتى إلى الشمال، هارباً من الرق، وتكلم للمرة الأولى إلى مجموعة من مناهضي العبودية، بدأت حركة ضد العبودية. وليام لويد غاريسون[٥]، كان قد بدأ قبله، ولكن فريدريك خدم القضية بطريقة أفضل: مظهره الدرامي.. بلاغته.. لقد كان بمثابة الشرارة في حركة تحرير العبيد.

● **ديسباتش: أنا أعتقد أن سيندي شيهان أيضاً تمثل شيئاً لا يستطيع أي شخص آخر تمثيله تقريباً.. في الحقيقة: لا يمكن تمثيله مطلقاً! الجندي المقتول.. ابنها!**

زن: إنه شيء مثير. هناك أمهات أخريات تكلمن، لكن سيندي أقدمت على الفعل الذي له صخب، وهو ببساطة معرفة مكان ذهاب بوش للعطلة [يضحك] وعمل مواجهة بين قطبي هذه الحرب: صانعها ومعارضته. لقد أوقفت سيارتها قرب مزرعة بوش وأصبحت مركز اهتمام الأمة.. مركز الثقل الذي التف حوله الناس.. مئات ومئات من الناس.

---

(٤) **فريدريك دوغلاس** (١٨١٨ ـ ١٨٩٥)، رجل أسود ولد عبداً في ولاية ميريلاند، ولكنه هرب وهو في العشرين من عمره إلى نيويورك حيث وجد حريته. عمل صحافياً في جريدة **المُحرِّر**، التي يملكها وليام لويد غاريسون، وتعاونا في مناهضة العبودية. برع في الصحافة واكتسب شهرة كبيرة. كان خطيباً بليغاً ضد العبودية. تعرف إلى أبراهام لينكولن وساعد في إقناعه على إصدار إعلان تحرير العبيد. يوصف بأنه مؤسس حركة الحقوق المدنية الأمريكية. (المترجم).

(٥) **وليام لويد غاريسون** (١٨٠٥ ـ ١٨٧٩)، رجل أبيض ولد في ولاية ماساتشوستس، واشتهر بمناهضة العبودية. أنشأ جريدة **المُحرِّر** المناهضة للرق واهتم بالإصلاح الاجتماعي. (المترجم).

● **ديسباتش: إدارة دبليو بوش لديها استراتيجية بعيدة المدى تقوم على عدم المغامرة بوضع الرئيس بوش في أي مكان عام يمكن تحدّيه فيه.. لكن الآن، إذا لم يكن المكان قاعدةً عسكرية؛ فأنا أشك في أن يكون في مأمن من تحدّي أي شخص له.. وحتى في القاعدة.. [مقاطعة]**

زن: هل قرأت عن عمدة سولت ليك سيتي، الذي تكلم أمام ألفي شخص منتقداً الرئيس هناك؟ هذا بالضبط ما بدأ يحدث في حرب فيتنام. بعد بعض الوقت، [الرئيس ليندون] جونسون و[نائب الرئيس هيوبرت] همفري، لم يستطيعا الذهاب إلى أي مكان.. باستثناء القواعد العسكرية. وأرى أن سيندي شيهان ليست صوتاً معتدلاً أيضاً. أقصد أنها تقول: «إننا يجب أن ننسحب من العراق» بجرأة وقوّة إلى درجة أن شخصاً مناهضاً للحرب مثل [كاتب **نيويورك تايمز**] فرانك ريتش، يصف موقفها بالمتشنج! وهذا شيء فظيع، لأنه بخصوص الانسحاب، سيندي تعبّر ـ كما أظن ـ عن الرغبة غير المعلنة لعدد ضخم من الناس، وهي تجرأت وقالت ما لم يتجرأ الكثير من السياسيين والصحافيين على قوله.

● ديسباتش: بوصفك شخصاً كتب عام ١٩٦٧ **فيتنام: منطق الانسحاب**، كيف تقارن نقاشات منطق الانسحاب في هذه اللحظة وتلك الأيام؟

زن: في وقت مبكر من حرب فيتنام.. كان هناك وضع لم يوجد فيه شخص واحد ناقد للحرب.. لم يكن هناك شخص مهم يدعو للانسحاب الفوري. كان الجميع يقولون كلاماً مطّاطاً: يجب أن نتفاوض.. يجب أن نتوصل إلى تسوية.. يجب أن نوقف القصفَ عند خط طول كذا. أعتقد أننا في موقف مشابه الآن بعد أكثر من سنتين على غزو العراق. عندما صدر كتابي عام ١٩٦٧، كانت قد

مضت سنتان على التصعيد الذي حدث في بداية عام ١٩٦٥، حيث أرسل جونسون الدفعة الأولى من قواتنا العسكرية إلى فيتنام بصورة ضخمة. وجه الشبه ـ كما أظن ـ هو النقاشات. . سابقاً، والآن. حتى اللغة متشابهة: يجب ألّا نَفِرَّ من دون إنجاز المهمة. . يجب ألّا نهديهم نصراً. . يجب ألّا نفقد سمعتنا في العالم.

● **ديسباتش: الصدقية كانت، إذاً، هي الكلمة السحرية؟**

زن: نعم. . بالضبط. الصدقية. ستكون هناك فوضى وحرب أهلية إذا غادرنا. . [مقاطعاً]

● **ديسباتش: وحمَّام دماء..**

زن: نعم. . وحمَّام دماء؛ لأن الطريقة الوحيدة لتبرير كارثة هو التهديد بحدوث كارثة أعظم إذا لم تستمر الكارثة الحالية! لقد رأينا هذه الخدعة السيكولوجية مرات ومرات عديدة. لقد رأيناها ـ مثلاً ـ في حالة هيروشيما. لقد قتلنا مئات الآلاف من اليابانيين لنتجنب كارثة أعظم: قتل مليون شخص أثناء غزو [برمائي] لليابان!

من المثير أنه عندما غادرنا فيتنام أخيراً، لم يتحقق شيء من تلك التحذيرات الرهيبة. هذا لا يعني أن الأمور كانت جيدة بعد مغادرتنا. الصينيون طُردوا. وكانت هناك مشكلة الفيتناميين الهاربين من الشيوعيين بواسطة القوارب، ومعسكرات إعادة التعليم، ولكن كل هذا لا يقارن بالمذابح التي ارتكبتها القوات الأمريكية عندما كانت هناك. ولذلك، أعتقد أن من المهم أن أقول إنه بينما لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث عندما تقوم الولايات المتحدة بسحب قواتها من العراق، فنحن أمام خيارين: **الأول**، كارثة مستمرة ومؤكدة بالفوضى والعنف اللذين يحدثان في العراق اليوم، والخيار **الثاني**، لا نستطيع توقعه، ومن الممكن أن يكون سيئاً. ولكن ما قد يكون سيئاً هو غير

مؤكد. . والسيئ في احتلالنا هو مؤكد! الأمر يبدو لي كالتالي: إذا كنت ستختار بين الاثنين؛ فيجب أن تخاطر بخصوص ما قد يحدث إذا أنهيت الاحتلال. في الوقت نفسه، بالطبع، يجب أن تفعل كل ما تستطيع لتخفيف الآثار السيئة الناتجة من مغادرتك.

● ديسباتش: أريد أن أعود قليلاً إلى سيندي شيهان. خلال سنوات حرب فيتنام الأخيرة.. كان الجيش الأمريكي غير قادر ـ تقريباً ـ على القتال. وبالرغم من وجود عائلات عسكرية مناهضة للحرب، فإن المقاومة الرئيسة للحرب أتت من المجندين الجدد أنفسهم. الآن.. لدينا جيش كامل يتكون من متطوعين. نحن نعرف أن الروح المعنوية في الحضيض، وأن هناك حالات عديدة من المقاومة ـ رفض العودة إلى العراق مثلاً ـ داخل الجيش، ولكن أغلب المقاومة هذه المرة يبدو أنها تأتي من عائلات الجنود. أنا أتساءل إذا كانت هنالك سابقة تاريخية مثل هذه؟

زن: أنا لا أعرف أية حرب سابقة حدث فيها مثل هذا الشيء في الولايات المتحدة. الأقرب لهذا ـ ربما ـ هو ما حدث في الحرب الأهلية [الأمريكية]، عندما تمردت زوجات الجنود؛ لأن أزواجهن كانوا يموتون وأصحاب المزارع يربحون من بيع القطن، رافضين زراعة القمح ليأكله المدنيون.

لكن في حالة الاتحاد السوفياتي، ربما تكون هناك مقارنة أقرب. الأمهات الروسيات احتججن على الحرب في أفغانستان. . أو «فيتنامهم»! أنا لا أعلم مدى تأثير ذلك في قرار الانسحاب السوفياتي، ولكن من المؤكد أنه كان أمراً دراماتيكياً.

كانت لدينا أمهات رائعات مناهضات لحرب فيتنام، ولكنهن لسن مثل سيندي شيهان. ولأن جيشنا في العراق يتكون في الغالب

من متطوعين. . فإن الاحتجاج تُرك للعائلات بطريقة غير مسبوقة. أولادهم وبناتهم ليسوا في موقف يسمح لهم بالاحتجاج بسهولة، ولهذا. . أنا أعتقد أنه سيكون هناك المزيد من احتجاج الجنود طالما استمرت الحرب. هذا أمر حتميّ. أنا أعتقد ـ وهذا أمر لا يمكن إثباته ـ أنه يوجد بالفعل في الجيش احتجاج واستياء تحت السطح أكثر مما تم الإعلان عنه. . ربما أكثر بكثير مما يمكن الإعلان عنه.

عندما أحاول التفكير في ما يمكن حقاً أن يجبر إدارة بوش على الخروج من العراق. . الشيء الوحيد الذي أفكر فيه هو عصيان في الجيش. ديڤيد كورترات [مؤلف **جنود في ثورة: مقاومة المجندين خلال حرب فيتنام**]، يعتقد أن بوادر تمرّد بعض المجندين في فيتنام كان عاملاً حاسماً في إخراج الولايات المتحدة أخيراً من فيتنام.

● ديسباتش: وماذا عن مقاومة الجيش في القمة بدلاً من القاعدة؟ إذا عدنا إلى الحرب الكورية، كان هنالك شعور بين الضباط وهو كونهم موجودين في الحرب الخطأ والمكان الخطأ والوقت الخطأ، وهذا تكرر في فيتنام. من الواضح أن قادة الجيش في العراق يعرفون منذ زمن طويل أنهم متورطون في كارثة. إنهم الأشخاص نفسهم الذين بدأوا يتكلمون مؤخراً عن تقليص القوات والانسحاب من دون إذن إدارة بوش!

زن: إنه تطور مهم جداً؛ لأنه عندما تحدث التصدعات في القمة، التي كان يُعتقد سابقاً أنها صُلبة، يصبح من الصعوبة الشديدة الاستمرار في الطريق نفسه. هناك مَثَلٌ يمكن طرحه ـ على الرغم من كونه ليس حربياً ـ وهو «المكارثية». عندما بدأ [السيناتور المناهض للشيوعية جوزيف ماكارثي] يطارد شخصيات مهمة في إدارة [الرئيس دوايت] آيزنهاور. . عندما تعقب [وزير الخارجية] الجنرال جورج مارشال؛ واستمر في الصعود نحو القمة في مطارداته. . انفض عنه

الناس. وهذا كان أمراً حاسماً في سقوطه. هناك سخط واضح في الرتب العليا في الجيش منذ بعض الوقت. على سبيل المثال، الجنرال [المتقاعد أنتوني] زيني، بدأ ينتقد بجرأة ووضوح منذ البداية. لبعض الوقت. . كنت أشعر بالقلق للتشابه بين اسمينا [يضحك]، لكنني أشعر بالرضا الآن بعد أن تكلم بهذه الطريقة!

● ديسباتش: والجنرالات المتقاعدون مثله يتكلمون دائماً نيابة عن زملائهم داخل الجيش؟

زن: هذا صحيح. إنهم في وضع يسمح لهم بقول ما لا يستطيع الآخرون قوله. كانت هناك مقاومة في الجيش في الكثير من حروبنا، ولكن حتى حرب فيتنام، لم تصل ـ بالفعل ـ إلى درجة تغيير السياسة. كان هنالك الكثير من حركات التمرد ضد واشنطن في الجيش الثوري. في الحرب المكسيكية، هرب الكثيرون من الجيش ولكن الحرب لم تتوقف. لا أستطيع أن أتذكر أية مقاومة في الجيش في الحرب العالمية الأولى. بالطبع. . الولايات المتحدة دخلت الحرب فترةً قصيرةً. . سنةً ونصف السنة تقريباً. بالتأكيد الحرب العالمية الثانية كانت حالة مختلفة. هذا ما يجعل فيتنام ظاهرة تاريخية بالفعل. لقد كانت أول تجربة نشاهد فيها حركة في الجيش كان لها دور مهم في تغيير سياسة الحكومة. ومن المثير للانتباه أننا، منذ ذلك الحين، خضنا حروباً قصيرة فقط ـ باستثناء العراق ـ وتلك الحروب صُمِّمت عن قصد لتكون قصيرة حتى لا يكون هناك أي وقت لقيام حركة مناهضة للحرب. **في حالة العراق، أخطأوا الحسابات. الآن.. أنا لا أعتقد أن السؤال هو «إذا»، بل «متى». متى؟.. وكيف؟ أنا لا أعتقد أن هناك أي مجال للشك في كون الولايات المتحدة سوف تُجبر على الانسحاب من العراق. الأسئلة هي: كم سيستغرق ذلك؟ كم من الناس سيموتون؟ وكيف سيتم ذلك؟**

● **ديسباتش: دعني أتحول إلى قضية أخرى كتبتَ عنها في الستينيات.. جرائم الحرب. لقد كانت «جرائم الحرب» آخر تهمة تصل إلى «الإعلام السائد» في هذه السنوات.. وأول ما غادرها! نحن عاصرنا جرائم عديدة بكل تأكيد في السنوات الأخيرة، من «أبو غريب» و«غوانتانامو» إلى أفغانستان. أنا أتساءل: لماذا لا تَعْلَق، كفكرة، بذاكرة الأمريكان؟**

زن: إنها تبدو عسيرة كفكرة. جرائم حرب.. جرائم حرب.. صعبة الإمساك! إن هناك استعداداً للقول إن القيادة مخطئة، ولكن الأمر يحتاج إلى قفزة هائلة للقول إن القيادة شريرة. مع الأسف، لا يزال في الثقافة الأمريكية نوعٌ من الفكرة المَلَكيّة (Monarchy)، وهي أن الرئيس وأعوانه أناس من فئة خاصة، وبينما يمكن أن يرتكبوا أخطاءً، لا يمكن أن يكونوا مجرمين! حتى بعد تحوّل الناس ضد حرب فيتنام، لم يكن هناك كلام بكثرة عن كون جونسون و[وزير الدفاع روبرت] مكنمارا والبقية [من معاونيهم] من مجرمي الحرب! وأنا أعتقد أن هذا يعود إلى ثقافة أمريكية تقوم على تقديس الرئيس ورجاله.. ويرفض الناس مجرد التفكير بما وراء هذه الثقافة!

● **ديسباتش: كيف يمكن لما يسمى بـ «الخصوصية الأمريكية» أن تؤثر في هذا الأمر؟**

زن: أعتقد أن أغلبية الأمريكان الذين ناهضوا الحرب في فيتنام كانوا ـ مع ذلك ـ يعتقدون أن جوهر هذا البلد هو الصلاح والاستقامة. لقد بدت لهم حرب فيتنام «انحرافاً فردياً شاذاً» عن الطريق السَّويّ. القلة فقط في حركة مناهضة الحرب، استطاعوا أن يتوصلوا إلى الحقيقة، ويروا الأمر جزءاً من سياسة مستمرة من الإمبريالية والتوسع. أعتقد أن هذا الوضع صحيح اليوم أيضاً. إنه أمر في غاية الصعوبة أن يتخلى الأمريكان عن فكرة كونهم أمة

طيبة. إنهم يرتاحون عندما يفكرون بهذه الطريقة! يعترفون بالأخطاء لكن يعتبرونها فردية وشاذة. أنا أعتقد أننا نحتاج إلى قدر عظيم من الوعي السياسي لكي نربط نقد سياسةٍ ما أو حربٍ ما إلى تقويمٍ عامٍّ سلبيٍّ للبلد وتاريخها. إذا تحقق هذا؛ فإنه سيجعل الكثير من الأمريكان يعيدون النظر في «نبل المقاصد الأمريكية».

بالطبع.. هناك أمر مهم وصحيح في الوقت نفسه، وهو وجود مبادئ جيدة تؤيدها الولايات المتحدة.. أو هكذا هو المفترض. **ولكن المشكلة أن الناس يخلطون بين المبادئ والسياسات، وطالما استطاعوا أن يحتفظوا بهذه المبادئ ـ العدالة والمساواة وغيرهما ـ في رؤوسهم؛ فإنهم يترددون جداً في قبول حقيقة أنه تم انتهاك حقوقهم باتساق تام. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أشرح بها الخدعة العقليّة التي تمنع الشعب الأمريكي من اعتبار الرئيس ورجاله مجرمي حرب.**

● ديسباتش: إذا تركنا كارثة العراق جانباً، ما رأيك في بصمات إدارة بوش على المشروع الإمبريالي الأمريكي؟

زن: أعتقد أن الإمبراطورية الأمريكية قد وصلت إلى حدودها القصوى في الشرق الأوسط. ولا أعتقد أن لها مستقبلاً في أمريكا اللاتينية. أعتقد أنها استهلكت ما تملك من قوة هناك، ونحن نرى صعود حكومات لا ترغب في أن تكون عميلة للولايات المتحدة الأمريكية. قد يكون هذا واحداً من الأسباب الذي يجعل من حرب العراق درساً مهماً لهذه الإدارة؛ في ما عدا العراق، لا يوجد مكان آخر يمكنهم الذهاب إليه. لذلك دعني أوضح الأمر كما يلي: أنا أرى أن الانسحاب من العراق عندما يحدث ـ وهذا مزيج من الاعتقاد والتمني [يضحك] ـ سيكون الخطوة الأولى في تقهقر الإمبراطورية الأمريكية وعودتها إلى التخندق والعزلة داخل حدودها.

على كل حال، نحن لسنا أول دولة في التاريخ تُجبر على فعل ذلك.

أود أن أقول إن ذلك سيكون بسبب المعارضة الداخلية الأمريكية، ولكن أشك جداً أن يكون بسبب معارضة بقية العالم لغزوات أمريكية جديدة في أماكن أخرى. في المستقبل.. إنني أعتقد أن ١١ أيلول/سبتمبر، قد يمثّل بداية انحلال الإمبراطورية الأمريكية. وهذا يعني أن الحدث ذاته، الذي بلور المساندة الشعبية للحرب فورياً، قد يمثّل في المدى الطويل ـ وأنا لا أدري كم سيستغرق ذلك ـ بداية إنهاك وتفتُّت الإمبراطورية الأمريكية.

● **ديسباتش: ستكون هناك مفارقة في هذا الأمر؟!**

زن: نعم.. بالطبع.

● **ديسباتش: أريد أن أتحول إلى موضوع الحرب. لقد كتبتَ أن احتمال إنهاء الحرب ليس أمراً طوباوياً تماماً. هل تعتقد حقاً أن الحرب يمكن أن تنتهي؟ أم أنها مغروسة في جيناتنا؟**

زن: على الرغم من أن هناك الكثير من الأشياء غير الواضحة لي، إلا أن هناك شيئاً واحداً واضحاً: إنها ليست جيناتِنا. كلما قرأت رواياتٍ ومذكرات، حتى لأشخاص ذهبوا للحرب، تقترح أن هناك شيئاً ما في العقل الذكوري يحتاج إلى مثل هذا العنف والعسكرة، لا أصدقها. أنا أقول هذا بناءً على تجربة تاريخية. أي إذا قارنت الحالات التي قام فيها أناس ـ ذكور غالباً ـ بارتكاب جرائم عنف مدنيّة وذهبوا إلى الحرب، مع أناس ارتكبوا جرائم عنف ولكن لم يذهبوا إلى الحرب، رفضوا الحرب؛ فإنك ستجد أن أكثرية الناس لا يريدون الحرب بطبيعتهم.

قد يريدون أشياء كثيرة مرتبطة بالحرب: القيادة، الإثارة الناتجة من الإمساك بالسلاح، وغيرهما. أعتقد أن هذا يشوّش على

الناس. الإثارة والقيادة يمكن أن تأتيا بطرق أخرى مختلفة، ولكنهما ـ بالرغم من ذلك ـ تأتيان من الحرب فحسب، إذا تم التلاعب بعقول الناس. بالنسبة إلي. . الحجة القوية ضد أي اندفاع نحو الحرب هو المدى الذي تضطرّ الحكومات أن تلجأ إليه لحثّ الشعوب على الذهاب إلى الحرب: الدعاية والتضليل الضخمان اللذان شاهدنا أمثلة لهما مؤخراً. ولا أنسى القَسْر. ولذلك. . أنا لا أؤيد إطلاقاً فكرة الميل الطبيعي للحرب.

● **ديسباتش: أنت نفسك ذهبت للحرب!**

زن: كنت في العشرين. عملت قاذف قنابل في الفرقة الجوية الثامنة ضمن طاقم طائرة B-17، الذي قام ببعض العمليات الأخيرة منطلقاً من بريطانيا. لقد ذهبت شاباً راديكالياً، معادياً للفاشية، ومؤمناً بهذه الحرب، ومؤمناً بفكرة الحرب العادلة ضد الظلم؛ في نهاية الحرب، بدأت أشك في إمكان تبرير الخراب الذي فعلناه: تدمير المدن، هيروشيما وناغازاكي، القصف الذي اشتركت فيه. وبالتالي. . بدأت أشك في دوافع قادة الحلفاء: هل كانوا فعلاً مهتمين بخطر الفاشية؟ هل كانوا فعلاً مهتمين بمصير اليهود؟ أم إنها كانت حرباً من أجل إمبراطورية جديدة؟ في القوات الجوية، قابلت شاباً متأثراً بـ تروتسكي وقال لي: «هذه حرب إمبريالية». صدمني. قلت له: «حسناً. . أنت تحارب! لماذا أنت هنا؟». أجاب: «أنا هنا لكي أتحدث مع أناس مثلك!». لم يحوّلني إلى مذهبه، ولكنه هزّني قليلاً.

بعد الحرب، وبعد مرور السنوات، لم أتوقف عن تأمل الوعود التي قيل لنا إن تلك الحرب ستحققها. الجنرال جورج مارشال، أرسل لي ـ ولـ ١٦ مليون جندي آخر ـ رسالة يهنئني بكسب الحرب ويخبرني كيف سيصبح العالم أفضل الآن لهذا السبب. حسناً. . خمسون مليون شخص قتلوا، والعالم ـ حقاً ـ لم يختلف! أنا أقصد

أن هتلر وموسوليني اختفيا، وكذلك الجيش الياباني، ولكن الفاشية والعسكرة والعنصرية بقيت في كل أنحاء العالم، وبقيت كذلك الحروب. ولذلك، توصّلت إلى استنتاج أن الحرب، مهما كان الحل السريع الذي تقدمه ـ هزمنا هتلر أو صدّام حسين الآن ـ ومهما كان الحماس المتدفق، فإن النتيجة تكون مثل المخدِّرات: تشعر أولاً بالابتهاج، ثم تعود إلى الخلف نحو شيء رهيب! ولذلك بدأت أعتقد أن كل الحروب، حتى الحروب ضد الشر، ببساطة: لا يمكن أن تنجز أي شيء. في المدى الطويل، إنها ـ ببساطة أيضاً ـ لا تحلّ المشكلة. وأثناءها تموت أعداد ضخمة من البشر.

كما استنتجت أيضاً أنه إذا أخذنا في الاعتبار التقدم التكنولوجي المذهل للحرب الحديثة؛ فإن الحرب تكون حتماً ضد الأطفال وضد المدنيين. عندما تنظر إلى نسبة القتلى من المدنيين إلى العسكريين، تجد أنها تتغير من ٥٠ ـ ٥٠ في الحرب العالمية الثانية إلى ٨٠ ـ ٢٠ في فيتنام، والآن ربما تصل إلى ٩٠ ـ ١٠ في العراق. هل تعرف جرّاح الحرب الإيطالي جينو سترادا؟ لقد كتب **البَبْغَاوات الخُضْر: يوميات جرّاح حربي**. لقد كان يقوم بعمليات جراحيّة في أفغانستان والعراق وأماكن أخرى. تسعون في المئة من الناس الذين أجرى لهم عمليات كانوا من المدنيين. عندما تواجه هذه الحقيقة، يجب أن تعرف أن الحرب الآن دائماً ضد المدنيين.. ولذلك هي ضد الأطفال. لا يوجد هدف سياسي يمكن أن يبرر ذلك.

ولذلك.. فإن التحدي الأعظم أمام الجنس البشري في عصرنا، هو حلّ مشاكل الاستبداد والعدوان من دون اللجوء إلى الحرب. [يضحك بخفوت] إنه عمل صعب ومعقّد، ولكن لا بدّ من مواجهته. وهذا هو ما فعلته عندما أصبحت ناشطاً في حركات مناهضة الحروب منذ الحرب العالمية الثانية.

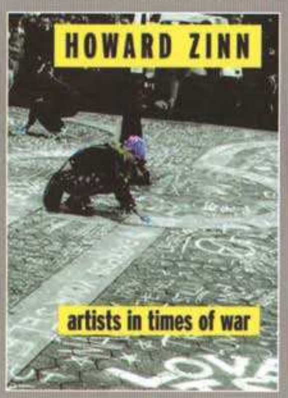
Howard Zinn

Stories Hollywood Never Tells

(Artists in Times of War)

Translated by: Hamad Alisa

With a Foreword by: Paul Cochrane



«لقد شاهدنا أفلاماً عن كريستوفر كولومبس، ولكنني لا أذكر أي فيلم كشف صورة كولومبس الحقيقية، أي رجل تحكمه الأخلاق الرأسمالية المتوحشة. هل ستنتج هوليوود فيلماً عنه يهون من الأخلاق الرأسمالية في قتل الناس من أجل الذهب وهذا ما كان يفعله كولومبس والإسبانيون؟!»

هوارد زن

من خطبة «قصص لا ترويها هوليوود مطلقاً». الفصل الثالث.



ISBN 978-614-428-021-8

9 786144 280218

منتـدى المعـارف

بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت

ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ١١٠٣٢٠٣٠ - لبنان

بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb